

جورج سيمنون

جرائم أصدقائي الثلاث





جرائم أصدقائي الثلاث



اسم المؤلف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Les trois crimes de mes amis
عنوان الكتاب : جرائم أصدقائي الثلاث
المترجم عبد الله عويشق
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

اللوغو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252



جورج سيمنون

ترجمة : عبد الله عويشق

جرائم أصدقائي الثلاث

منشورات





٤



ـ ١ ـ

يضللك الأمر.

فقبل قليل، ماذا أقول، بل منذ لحظة، وبينما أنا أضع عنوان كتابي، كنت مقتنعاً بأنني سأبدأ قصتي كما يبدأ المرء رواية، والفرق الوحيد إنما يتمثل في واقعية الأحداث فعلاً أو لا واقعيتها.

لكن هأنا أكتشف فجأة بأن ما يجعل الرواية خادعة، وما يجعل أنها لا يمكن أن تكون صورة عن الحياة هو أن الرواية لها بداية ولها نهاية.

هيا سانت دانس قتل عشيقته وأمه في ١٠ أيار ١٩٣٣. لكن متى بدأت الجريمة فعلاً؟ هل ذلك عندما بدأ في مدينة لييج بإصدار مجلة «نانيس»: القزمة ذات المكنسة المنتقمة، وجعلتني مصادفة لا تصدق أحد مؤسسيها وأنا في السادسة عشرة بعد. هل ذلك خلال ما كنا أنا ودوبلوويه نتخطر في

شوارع المدينة؟ أليس قبل ذلك بكثير، أثناء الحرب، عندما كانت الفتيات الصغيرات يهمسن لنا أنه وراء النوافذ المغلقة لمتجر ما للكتب...

ودوبلوويه، متى بدأ يصير مجرماً؟ والفقير الهندي؟ ولماذا حدث أن علمت البارحة بالضبط أنه مات في أحد المستشفيات في باريس، مات من الفاقة، ومن إدمان الكحول، ومن كل الأمراض الدنيئة، من كل الرذائل، من كل العيوب، مات إحدى تلك الميتات التي تعلن عن نفسها مقدماً أياماً وأياماً بواسطة روائحها.

لماذا؟ كيف؟ من أين البداية، ما دامت ليست هناك بداية، ولا رابط آخر هنالك بين ثلاث جرائم، بين خمس أو ست وفيات، وبين حفنة من الأحياء، عبر السنوات وعبر الأمكنة، غيري أنا نفسي.

وأعتقد أنني ما أزال أسمع صوت دانس يرن كقرع المطرقة في قاعة محكمة الجنايات الغريبة لمدينة لييج وهو يقول:

ـ عندما كنت في الرابعة، أخذتني أمي معها الى الريف وهناك، في باحة إحدى المزارع، رأيت رجلاً يقتل أنثى خنزير، بالمطرقة أول الأمر، ثم بحز عنقها...

يوم كان في الرابعة لم أكن أعرفه. لم أكن قد ولدت. ولم أكن أكثر من ذلك حضوراً عندما، بعد أربعين عاماً، وفي بيت صغير في الريف الفرنسي، قتل أمه وعشيقته، بالضبط كما رأى قديماً أنثى الخنزير تقتل.

هل بمقدوري أن أقول بصورة أكثر تطابقاً مع الحقيقة في

أية لحظة قرر الصغير ك...، الذي كان حذاؤه يترك الماء ينفذ لداخله، أن يشنق نفسه على باب كنيسة القديس فوليان؟ أليس ذلك بينما كنت أحمله على ظهري قبل بضع ساعات من إقدامه على تصرفه ذاك، إذ كان ساكن الحركة لفرط ما شرب، والزبد ما يزال يرغي على فمه بعدما كان قد قاء كل ما في جسمه.

ثلاث جرائم؟ ثمة سرعة في قولها. ولكن قبل؟

وأذكر أنني في حداثتي، كنت ألتهم الروايات التهاماً بمعدل ثلاث روايات في اليوم، وجميعها كانت تتركني غير مروي الغليل بعد قراءتها. وكنت إثر الانتهاء من الصفحة الأخيرة أقول بزفرة:

ـ إنما، وبعد؟

ولماذا انتهت الرواية في حين أن جميع أشخاصها لم تنته حياتهم؟ ولماذا قرر الكاتب الأمور على هذا النحو، وفقاً لهواه، مجاناً، بحيث أنه في لحظة ما، لم يعد هنالك أي شيء، فيما عدا صفحة بيضاء مع اسم الجهة التي تولت الطباعة؟

اليوم، لم تعد النهاية هي التي تضايقني، بل البداية. فبأي حق سأظهر دوبلوويه فجأة وهو في الخامسة والثلاثين وكأنه لم يكن له وجود من قبل؟ والآخرون، هم أيضاً، لم أعرفهم إلا في لحظة معينة من حياتهم، كما لو كانوا يمرون مروراً عابراً؟

الرابط الذي تكلمت عنه؟ ... مشهد أتذكره يعود الى ١٩١٥ ... وآخر بعد سنتين، وأنا أبدأ بارتداء أول سراويلي الطويلة... دانس... دوبلوويه... ثم الفقير... والصغير ك...

لم أكن أرتاب في شيء وفي أن أصدقائي كانوا مجرمين! ولم أكن أرتاب في شيء بعد عدة سنوات عندما بدأت أكتب

روايات بوليسية، أعني قصصاً عن جرائم مزيفة، بينما الذين كنت عشت قديماً معهم والذين تنفسوا ذات الجو مثلي، وشاركوا في نفس الأفراح ونفس أشكال الترويح عن النفس، وناقشوا نفس المواضيع، انصرفوا الى القتل قتلاً فعلياً، الأول في شارع موبوج، يرش رجلاً بالرصاص من خلال جيب معطفه الغباردين، والآخر في بوبيه، بعيداً عن المكان الذي ولد فيه، حيث عاش حياته، يحيط به فلاحون فرنسيون كانوا غرباء عنه، الأمر الذي ربما دفعه للعودة في اليوم التالي الى مدينة لييج، وأن يهيم عبر شوارع أليفة لنفسه، ثم أن يقتل من مسافة قريبة، وبكل طلقات مسدسه الطاحون، كاهناً جيزويتياً كان يتلقى من قبل اعترافاته بخطاياه وكذلك اعترافاتي أنا بخطاياي.

أليس غريباً أنني أنا في تلك الفترة كنت أكتب روايات بوليسية، وأبذل قصارى الجهد في تصوير مجرمين؟

لعل الأمر أقل غرابة مما يبدو. ولئن نظرنا الى ذلك من مسافة أقرب، وأولينا قراءتنا مزيداً من الانتباه، فها إن ما سنجده في كتبي، إنما هو نفس الأطر، والأجواء، والحالات النفسية، التي كان لها عند الثلاثة الآخرين أن تفضي الى...

إن الجرائم الثلاث التي ارتكبها أصدقائي هي مشابهة لكل الجرائم التي رويت قصصها. إلا أنها بحكم كونها حقيقية، ولأنني أعرف مرتكبيها، فإنه يستحيل علي أن أكتب:

ـ وقد قتل لأنه...

لأن لا شيء. ولأن كل شيء. وفي بعض اللحظات أعتقد أنني أفهم كل شيء، وأنني ببضع كلمات، سأتمكن من...

لكن لا! ففي اللحظة التالية، يحدث للحقيقة التي كنت ألمسها بأناملي أن تتبخر تقريباً، فأرى دوبلوويه آخر مختلفاً، ودانس يبتسم ممتلئ الصحة وراء منصة المحاسبة، وأسمع جملة... أو هي رائحة آسنة متخلفة خاصة بالفقير تصعد الى حلقي فيخيل إلي أنني عدت أهيم تحت مصابيح الشوارع الملطخة بالزرقة لأيام الحرب...

مستحيل رواية الحقائق بترتيب، وبوضوح صاف، فهي ستبدو دائماً أقل قابلية للتصديق مما يرد في الروايات.

لعله ينبغي إعادة صورة كل الاحتلال تقريباً الى الذاكرة، ذلك لأنه قد ترك وسمه على الشباب الذين عانوه بدرجة تماثل في عمقها التضخم المالي الذي سيسم بعد بضع سنوات جيلاً من الألمان.

لكن الاحتلال لا يروى بأكثر مما يروى التضخم. فهما ليسا عبارة عن وقائع: بل جو، حالة، ورائحة ثكنة في الشوارع، والرقعة المتحركة لطيوف قامات ترتدي زياً رسمياً غير أليف، وهو كذلك الماركات حلت محل الفرنكات في الجيوب، وشاغل تدبير الطعام الذي حل محل كل الشواغل الأخرى، إنه كلمات جديدة وموسيقى مجهولة ومطابخ متنقلة على طول الأرصفة، وهو العادة التي تكتسبها العين في البحث على الجدران عن الملصق الجديد الذي سيحدد بدءاً من أية ساعة تم تحديد منع التجول، أو الذي سيعلن عن وصول كمية من سكر «التموين»، هذا إلم يكن وجوب المثول، بالنسبة للرجال، كل أسبوع إلى قيادة الموقع، وإلم يكن الملصق أحمر وقد سطرت عليه قوائم المدنيين الذين تم اعدامهم رمياً بالرصاص.

وبالطبع فإن الحياة تستمر، الاعدادية يجب الوصول اليها في الوقت المحدد، وتعلم الدروس، وكتابة الوظائف، وذلك مقابل مناقشة خلال الفرصة عن رفيق من المدرسة يبيع أبوه زبدة للألمان، أو عن آخر شوهدت أمه مع أحد الفرسان الرماحة الألمان.

إن شواغل غلام في الثالثة عشرة تبقى شواغل أبدية، مع غيرها بكل بساطة زيادة عليها. وهكذا، ففي زمرة تلامذة الصف الخامس الواقع تحت الدرج الكبير، يحدث أن يهمس هامس:

ـ أفلح أبي في شراء عشرة كيلوغرامات حنطة من إحدى المزارع، وكاد أن يقبض عليه وهو عائد الى المدينة.

أو أيضاً:

ـ ربح الفرنسيون معركة. عرف أهلي ذلك من شخص اجتاز الحدود الهولاندية وأحضر جريدة...

ولا يمنع هذا أن الكلام كان خصوصاً يدور حول بنات المدرسة المجاورة وحول بعض الأمور التي لا يعرفها البعض معرفة جيدة بعد، بينما يدعي آخرون معرفتها بل حتى أنهم حققوها واقعاً، أو يحدث أن ينقلب صف عاليه سافله، طوال شهر، بسبب صورة جنسية مصغّرة، سطحها الصقيل مشقق يظهر فيها بصورة بينة كيف يجري الأمر بالضبط.

إن ألوف الجنود الذين تتعاقب أرتالهم صاعدة الى جبهة القتال أو عائدة منه، تكون لهم رغبات متقدة جائحة، وعلى الجدران تتكلم الملصقات عن ذلك بصورة فجة: «كل امرأة كانت لها علاقات مع أحد الجنود من دون أن تكون مرت على المعاينة...».

وهنالك أيضاً تفاصيل حول تدابير الحيطة واجبة الاتباع.
الشوارع مظلمة. فواجهات المتاجر، خشية من اغارات
الطائرات، غير مضاءة، بينما طبقة سميكة من طلاء أزرق
اللون جعلت نور مصابيح الشوارع أقرب الى وهم.
وشارع فيرونستريه هو شارع ضيق يعج بالحركة وتملؤه
بجلبتها الحافلات الكهربائية التي تكاد تلامس أرصفته غير
الكافية.

وهناك، في ذلك الشارع، كنت أشتري عادة كتبي
المدرسية من متجر للكتب المستعملة ثم أعود فأبيعها له. بل
كانت فيه خزانة ممتلئة كتباً مدرسية مرتبة بحسب المدارس.
وكتب دراستنا، كان آباء يسوعيون هم الذين ألفوها. إنما في
خزانة مجاورة، كانت غلافات للكتب ألوانها أكثر تنافراً،
مرقطة ومخططة، معروضة للناظر، لا نجرؤ على الوقوف
أمامها، خشية ابتسامة ما تطفو على وجه أحد المارة.
وفعلاً، فإن هيا سانت دانس إذا كان يزود معظم تلامذة
المدارس بالكتب، فإنه كان متخصصاً أيضاً في الكتب التي
توصف بأنها «غزلية». ففي أعماق متجره، في الصدر تماماً،
اتذكر أنني لمحت رفاً خاصاً بكتب «الجلد بالسوط» أذهلني.
كان الكتبي رجلاً ضخماً، يزن حوالي مائة وثلاثين كيلو
غراماً، وابتسامة مرحة لا تفارق وجهه. فهو يشتري يوم
الاثنين منك بماركين كتابك لدراسة الأدب، تأليف الأب
المحترم فيريست، وفي يوم الخميس يعود فيبيعك إياه بستة
ماركات، وهو يضحك ممازحاً، ويده تربت على كتفك بطريقة
ودية.

ولا بد أنني كنت في الثالثة عشرة والنصف، وبالتأكيد أكابد من احتياج خطير للنقود، عندما قررت ذات يوم بيع ثلاثة كتب كان صديق أعطاني إياها: ثلاثة أجزاء لفيكتور هوغو، مجلدة تجليداً ثميناً، والتي كانت تعود، أكد القاموس ذلك لي، الى الطبعة الأساسية الأصلية.

وأستعيد الآن صورة دانس وهو ينقر بأصابعه عليها، وأنا، في مواجهته، معلق الأمل على سماعه ينطق برقم ضخم.

ما أزال أستعيد صورته وهو يضع الكتب على منصة المحاسبة ويسحب من جيبه حافظة نقود علتها القذارة، ممتلئة دائماً بأوراق من فئة المارك.

وسألت منعقد الحلق:

ـ كم؟

ـ عشرون ماركاً للكل يا صغيري.

ـ لا، بأي شكل. إنها الطبعة الأصلية، تلك التي صدرت في بروكسيل، وإن التجليد وحده...

ـ أتقبل بعشرين ماركاً؟

ـ لا. أفضل الاحتفاظ بالكتب.

لماذا كان يقف بيني وبينها؟ هل كان سيحول بيني وبين استردادها؟

ـ قلت: عشرون ماركاً. والآن أضيف شيئاً آخر: قد لا يكون، ربما، من باب الفطنة والحيطة أن تمضي حاملاً هذه الكتب، تتخطر بها ما بين كتبي وآخر... أنا، إنني شخص طيب.

ـ ما الذي تقصد قوله؟

ـ كتبك فيكتور هوغو هذه آتية من مكتبة الجامعة. أنا لا أسألك أي شيء... هذا لا يعنيني...

صرت قرمزي اللون ولا أعرف كيف انتقلت الأوراق العشرون من فئة المارك من يد دانس الى يدي. وأوصلني الى الباب، وعندما التفت الى الوراء، ألفيته واقفاً عند مدخل محله، بطنه مندفع الى أمام، ووجهه البدين منبسط الأسارير برضا.

أجهل إن كان للاحتلال والحرب علاقة بالأمر. أم أن أول علاقات جنسية لها دائماً ذلك الجانب من الاضطراب والخلسة.

وذكرياتي، لا أعرف لماذا، ليست إلا ذكريات عن شتاء ومطر أو رذاذ نفاذ، وضباب، وأرى مجدداً ذلك الشارع الطويل، بمصابيح الطريق فيه مطلية بالأزرق، أو، منذ السابعة مساء، كنا نتخطر طوال ساعات في ظلمة شبه كاملة، لدرجة أننا اعتدنا أن نتزود بمصباح جيب.

في ليـيج، يطلق على هذا النوع من النزهة: «الكارّيه». من دونما سبب، لأن المرء يمشي بلا نهاية من أول الشارع الى طرفه الآخر، جيئة وذهاباً، ملتقياً عشرين مرة نفس الوجوه في سهرة واحدة.

كنا الأصغر عمراً. وافترض أن المومسات كن يقمن بعملهن بهذا القدر أو ذاك من التوفيق بينما كنا نجري وراء فتيات صغيرات من عمرنا نشهر عليهن أحياناً مصابيحنا بغتة تحت أنوفهن.

الكل باد سوء التغذية عليه، مثلهن مثلنا في ذلك! والجميع

في ثياب سيئة. بل أذكر أنه في مرحلة ما لم يعد لدينا إلا أحذية نعالها من الخشب.

وكانت أول دور للسينما تعرض بمرافقة البيانو أفلاماً هزلية، أبطالها حمقى خائبو التصرفات، وفي كل فاصل استراحة كان أفراد الجمهور يقومون بسقاية الشاشة.

ولم يكن لأمر غرفة في فندق أن يكون موضع بحث، وهي، والحق يقال لم تكن ضرورية.

كانت معرفتنا الأولى بعلاقات الغرام تتم في الزوايا. ملابسنا منقوعة بالمطر المنهمر، وأفخاذ ساخنة تكتشفها اليد فجأة تحت المعاطف الواقية والباردة برداً جليدياً، وأفواه تختبر نفسها في خلق لذة من القبل إنما لا تبلغ أكثر من لذة نظرية.

ـ ماذا قالت لك؟

ـ أقسمت لها على ألا أكرر ما قالت...

ـ أخبرني أنا! لي أنا فقط... ولن أروي ذلك لأحد...

لم يكن الواحد يكاد يرى الآخر جيداً، وما كان ذلك ليدفع الأيدي المفتقرة للخبرة إلا لمزيد من التشبث المعاند...

ـ أخبرني به. قل لي إياه!

كم كان عمر تلك الفتيات الصغيرات؟ أربع عشرة سنة؟ خمس عشرة؟ فتيات صغيرات من عامة الشعب، يأتين في جماعات ويعبرن أمام الرجال وهن يضحكن ضحكة فيها قرار من خوف. أما نحن، الفتية، فلم يكن لنا حساب. فقد كانت لهن أسرارهن التي كن بواسطتها يضعن ماء في فمنا.

ـ بكل الأحوال ما كنت لأدع أحداً يفعل بي كما يروق له...

وهذا من دون أن نأخذ بالحسبان أنها لم تكن تملك الجرأة على العودة الى بيتها...

ـ لماذا؟...

ـ لا أستطيع البوح بذلك... إنها أشياء بالغة الخطورة...

وبالنظر لما كنا عليه من سذاجة إذ ذاك، كنا نلحف طوال ثمانية أيام لنشارك في ذلك السر الشهير إياه الذي لم تكن تكفّ صديقاتنا عن الثرثرة به فيما بينهن.

ـ ذلك في المكتبة.

ـ أية مكتبة؟

ـ لن أقول... فهو يحمل بطاقة من مقر الحاكم العسكري.

ـ من؟...

ـ هو! الرجل! فهو يملك الحق في توقيف أية امرأة في الشارع وفي أن يقتادها...

ـ لماذا؟

ـ للتأكد من أنهن خاليات صحياً من أي مرض...

هذه الكلمة وحدها! وكم كان يمكن أن تقلب كياننا!...

ـ أهو طبيب؟

ـ لا! ولكنه يقوم بزيارتهن مع ذلك... اللعنة! لقد أفرطت في الكلام...

وكنا نتناول معلوماتنا المسكينة، متباهين بذات الوقت بأننا فعلنا أكثر بكثير مما كنا قمنا به فعلاً.

ـ أنا، أعرف من هو... إنه دانس، بائع الكتب المستعملة في شارع فيرونستريه

ـ الرجل الذي أبيع كتبي في محله؟

دائماً هذا الشارع المظلم، الأغلاق الخشبية الخارجية موصدة على النوافذ، مصابيح الطريق الزرقاء، والذي قد صار كل دنيانا، بطيوفه الهاربة خلسة، وجنوده الذين يعرفهم المرء من وقع أحذيتهم، وأحياناً المرور السريع للعباءة الدالة على المكانة فوق كتفي ضابط، ورنين المهاميز، وعطر امرأة مرتدية ثياباً أنيقة...

ـ سيدوني، وجب نقلها الى المستشفى...

ـ ماذا بها؟

ـ هذا أمر لا يعني الرجال.

يا لغرابة أمر تلك الفتيات الصغيرات، اللواتي كن يرجعن إلينا نحن، يقدمن حمايتهن، بعدما كن قضين ساعات غامضة السر مع رجال حقيقيين كانوا يصطحبوهن لتناول الطعام في مطعم!

ـ البارحة كن أربع... وقد نصب شمعة فوق رأس رجل ميت...

وسيدوني التي كانت ذهبت الى هناك عدة مرات، والتي كانت تترك في نفسي لشدة ما تعانيه من فقر دم الأثر الذي تحدثه إيقونة للعذراء، والتي كانت تشد حول عنقها ياقة من الفرو فقدت كل وبر فرائها.

ـ ما الذي فعله لك؟... اخبريني بذلك!...

الرجل، كان فعلاً هيا سانت دانس، ذلك الذي يشتري كتبنا منا، ويعيد بيعنا اياها، بسيمائه بادية المرح جداً. وقد رآه أحدنا وهو يدخل فعلاً الى مقر الحاكم العسكري، وصحيح أنه كان يحمل بطاقة عليها أختام ألمانية، وصحيح أنه كان في

الليل يوقف فتيات صغيرات ويصطحبهن الى دكانه ذي النوافذ التي أوصد أغلاقها الخارجية الخشبية.

وكان صحيحاً أيضاً أنه تعين نقل سيدوني الى المستشفى. وصحيح أنه...

وكان الأمر ينتهي بنا لأن نعرف من نتف صغيرة، واحدة من هنا وأخرى من هناك، ولكن ما كنّ يرفضن دائماً أن يقلنه لنا هو ذلك الذي كان يفعله بالضبط بأجسادهن غير المكتملة.

ـ يختلف هو عن الآخرين... ليس مثلهم... إنه فاسد...

لدرجة أننا كنا نتقصد تماماً الذهاب لعند دانس، ونحن نقول لأنفسنا إنه هناك، على هذا المقعد المنجد العتيق، مثلاً، حين يحل الليل، وحالما يجري إيصاد الأغلاق الخشبية على النوافذ...

وما أزال أسمع الصوت المبحوح لإحدى الصغيرات، وهي ابنة بائعة خضار وفواكه الموسم، امرأة متعيشة:

ـ ما كان عليك أن تذعني له...

ـ كان سيشي بي الى الألمان...

خمسة عشر؟ خمسة عشر عاماً ونصف؟ فالآن، أصبحت لي سراويل رجال، وأخذت أدخن غليوناً له أنبوب رقيق. وفجأة ظهرت في المدينة أزياء عسكرية جديدة، وجوه متعبة، وطيوف قامات هارية: إنهم الأسرى الروس الذين بدأ الألمان وقد أحسوا قرب الانهيار التام يطلقون سراحهم من الأسر.

ـ من الذي لم ينل روسيّه بعد؟

إذ كان كل بيت يريد روسياً عنده. وكل شابة كانت تأخذ روسيا برفقتها وهي تتنزه عبر المدينة. لكم عانوا من عذاب!

وإذا بيوم يأتي، بعد الظهر، وكنا في مسرح منوعات واسع، وبعد أن غنى أحد الهزليين لتوّه أغنية، «كارولين، بان، بان، بان... أصابها المرض، بان، بان، بان...» وإذا به، كما قلت، ذلك الفنان الهزلي نفسه، ولا شك في أنه جن ليفعلها، يرتدي في الكواليس زياً عسكرياً فرنسياً، لباس حقيقي، ويعود الى المسرح و...

وما كان يمكن التصديق أن الأمر حقيقة. فقد أخذ ينشد المارسيييز، النشيد الوطني الفرنسي، وأغنية: البرابانسون، والمادلين، ألحان أجنبية غريبة لم نكن نعرفها بعد.

وبين مقطع وآخر من الأغنيات يزعق من أعماقه:

ـ الحرب انتهت!... وقد تم توقيع الهدنة!...

وطبعاً، كان الألمان يهيمون بعد عبر شوارع المدينة. شريط لا نهاية له من سيارات الشحن، والمدافع، والمطابخ المتنقلة، والناس الذين هدهم الإعياء، يمتط الشريط باتجاه الشرق بينما أخذ الضباط ينزعون شارات رتبهم.

ولا أعرف ما الذي كان دانس يفعله ونحن مندفعون نرقص الفاراندول الجماعية مع مجهولين ومجهولات، بينما انصرفت مجموعات أخرى في الشوارع ينزع أفرادها ثياب النساء اللواتي نشأت لهن علاقات مع قوات الاحتلال ويحلقون لهن شعرهن على الصفر.

ـ الحلفاء على بعد خمسين كيلو متراً.

وعند ذاك، طالما أن الأمر جار، جار، فقد بدأ نهب المتاجر التي يحوم شك حول أنها قامت بالاتجار مع العدو، وطارت الخزائن الزجاجية التي ألقي بها من النوافذ، وغصت

مجاري الماء بقطع الجامبون، في حين اقتصرت الشرطة في عجزها على ترديد:

ـ دمروا، لكن لا تسرقوا.

ولم أكن أعرف ك... بعد، وهو مراهق عصبي، عانى من سوء التغذية أكثر من أي آخر، والذي كان يتبع الدروس في أكاديمية الرسم في الوقت الذي كنت أنا أتبع فيه الدروس في الاعدادية.

ما أعرفه هو أنه جاع، وأنه قد أكل الملفوف ـ اللفتي السويدي على أنه بطاطا، وأنه في الليل كان يهيم مثلي في الظلام وراء الفتيات الصغيرات في «الكارّيه».

كان ابن عامل في الضواحي. وقد ماتت أمه. ويريد أن يصير فناناً عظيماً.

ويوم الهدنة كان هو أيضاً في عداد راقصي الفاراندول الذين كانوا يدخلون الى كل المقاهي ويشربون، مجاناً، حتى الدوار.

تفصيل: كنت متأبطاً، مصادفة، فتاة مبتذلة زينت اصبعها بخاتمين... وفجأة لمحتنا أمها، فجاءت نحونا، ونظرت إلينا بارتياب، وأخذت الخاتمين من ابنتها، وابتعدت مغمغمة:

ـ الانسان لا يعرف أبداً!...

أما دانس، فأنا الآن أعرف ما الذي كان يفعله تلك الليلة وراء النوافذ المغلقة. كان يكتب! كان يؤلف قصيدة غنائية مكرسة للسلم، في نفس تلك الغرفة التي كانت الفتيات الصغيرات...

ـ الحلفاء على بعد عشرين كيلو متراً...

كنا نذهب على الدراجات الهوائية لرؤيتهم، وهم يتقدمون في أرتال، في حين أن رتلاً آخر كان يأخذ طريقه بصورة يرثى لها نحو الحدود الألمانية، والضباط المهزومون يتلقون على الملأ الركلات من أحذية رجالهم العسكرية.

وقد ظل دانس يعمل، وسط حمى، لأن كل شيء حينذاك كان يجري بحمّى، العالم بأسره كان محموماً، وقد دارت برأسه فكرة حدوث شيء جديد.

ـ الحلفاء في الضواحي...

ودانس كان جاهزاً. فنشيده قد اكتمل. وقد كتب بالإضافة بعض الأغنيات الوطنية، التي سيتمكن دون أن يضيع دقيقة واحدة، من أن يغنيها في المدن الصغيرة، مرتدياً زي الجندي المغني، الثور لورو، العائد لفترة ما قبل الحرب، سمين ومورد الوجه، بابتسامة على شكل قلب، وفق ما تقتضيه أصول هذا النوع.

وفي باريس، كان شخص يدعى دوبلوويه، وهو ابن تاجر محترم للأدوات المنزلية في مدينة لييج، يعمل في جريدة صغيرة في حي مونمارتر، حيث كان يحرر الأخبار المحلية الصغيرة.

وهناك، في مونمارتر، فوق، كان الـ: فقير، وهو رجل ذو شعر دسم، قدم يعلم الله من أين، يقوم بجولة على المقاهي في كل ليلة، ويجلس أمام زبائنه، ويقرأ لهم خطوط الكف.

وفي ذلك اليوم، تعتعني السكر لأول مرة في حياتي، وأنا ما أزال أتأبط ذراع الفتاة التي كانت أمها قد سحبت الخاتمين منها.

هل كنت أملك أن يساورني بأنني بعد انقضاء عام سأصبح صحفياً وأن دوبلوويه، بعد عودته من باريس، سيغدو رفيقي، وأن دانس سيحتاج يوماً لجريدة.

وأن الـ: فقير سيأتي الى ليبج مجرباً حظه في البحث عن الثروة فيها، ويبهرنا بتجاريه، في حين كان الصغير ك...

ولكي اعود الى بيتي، كنت أمر كل ليلة أمام كنيسة سان ـ فوليان... وأمر أيضاً أمام متجر أهل دوبلوويه للأدوات المنزلية...

كنت في الخامسة عشرة والنصف، ومن دون أن أعرف ذلك، ومن دون أن أعي الأمر، كنت سأرى ثلاث جرائم تتداخل مسنناتها بعضها ببعض حولي.

لكن في حينها، كنت منصرفاً لأن أحفظ غيباً كلمات أغنية لا مادلون، وأجمع بوطنية كبيرة جميع أزرار عباءات كافة الجيوش الحليفة.

ـ ٢ ـ

أرى مـجـدداً، في حـارة هادئة، جـمـعاً من الناس، يبـرزون بغتة وهم يجرون ويصـرخون، وأرى امرأة مشعثة الشعـر تحاول جاهدة وبلا جدوى أن تفلت من مطارديها، الذين انهدّوا عليها بالمعنى الحـرفي للكلمـة، وطوال دقائق عـديـدة، حـركات غيـر واضحـة المعالم، وجيشان مضطرب، واشـارات بالأيدي لا يفهم من بعيد معناهـا، والتـزام بالصمت شبه معبر عن الاحترام، كما لو أن الأمـر هو تنفيذ حكم، لا يقطعه الا عويل المرأة التي لم تعد تقوى على التخبط.

لولا أنه بين كل تلك الكائنات المـرتدية مـلابسـهـا، ظهـر جسد عار كلياً، عري أكثر فجاجة منه في أي مكان آخر، وسط الضـوء البـارد في الشـارع وعلى اللون الرمـادي القـاسي الذي لحجارة الطريق، وتجمـد الضحكات، ولا تقوى الأنظار على أن تحيد عن المثلث القـاتم الذي ينفصل شكله باتّا أسفل البطن المكفهر...

ويتسلل غلمان مثلي، مصابون بمرض البحث عن الانفعال، بينما امرأة على قدر من سطوة، بيدها مقص تسلحت به، تجز بمحاذاة جلدة الرأس شعر المرأة التي ارغمت على النهوض، وعلى السير بمحاذاة المنازل، بينما مائة رجل أخذوا يواكبونها.

في تلك اللحظة لم يكن يطرح السؤال عما إذا كان الأمر مأسوياً أم أنه تهريج أو ما الذي ستكون عليه ردود فعل الجندي الذي، بعد يومين أو ثلاثة، سيلقى زوجته في عودته من دون شعر ويعلم بذلك أن زوجته كانت منحت جسدها للألمان.

كان كل اسبوع يشهد امتشاقاً للسلاح، واحتفالات وطنية، وفي كافة المزارع كان اسم جميع الخنازير: غليوم.

وكان دانس، بألق وازدهار حال، أشبه بدمية تمثل طفلاً مسخاً يزن مائة وثلاثين كيلو غراماً، في زيه العسكري الجديد، يقوم بجولة على المدن الصغيرة، وتحت اسمه كمغن هزلي، كان يمكن أن يقرأ المرء: «سجين سابق في أسر الألمان».

أكان ذلك حقيقة؟ أكان زيفاً؟ ما عاد أحد يعرف بعد. فطالما أن ذلك مطبوع، وما دامت السلطات غضت النظر... والسلطات على أية حال لم تكن بأكثر علماً، فلديها من عملها في تنظيم المواكب إرواءً لتعطش المدنيين للبطولة، ما يكفيها أو أكثر.

ولم يكن دانس من جهة أخرى مستسلماً في مكتبته للعطالة؛ فهو بخطه المتأني، وعلى ورق فاخر صقيل من جلود الحيوانات، كان يخط القصائد: نشيد الى الملك ألبير الأول، نشيد الى الجنرال فوش، نشيد الى الرئيس كليمانصو...

هل كان ساذجاً كبيراً، أم خبيثاً ضخماً؟ أيا كان الأمر فهو لم يكن يكبد نفسه اللجوء الى ناشر ولا يحاول أن يصل الى الجمهور. وقصائده، كان يكتفي بنسخها عدة نسخ، فيزينها بأشكال متشابكة الخطوط: أرابيسك، وبأعلام، وبزهور مرسومة، ويبدؤها بحرف مجسم كبير من طراز أول حروف مطبعية استخدمت قبل العام ١٥٠٠، أو بتهانئ بمناسبة رأس السنة.

وعندئذ، ولخبرته بالأمور، كان يبعث بها مع رسالة دالة على الاحترام العميق الى الشخص المعني: الملك، فوش، كليمانصو، وجميع الآخرين، كافة الذين دخلوا مؤخراً التاريخ. وتحت توقيعه لم يكن ينسى تسجيل عبارة: «ضحية مدنية من ضحايا البرابرة»، بحيث أنه بعد انقضاء بضعة اسابيع، كان يتلقى في مغلفات رسمية كبيرة:

«سيدي...

إن جلالته تأثر جداً ب....»

وكانت هذه الرسائل الصادرة عن شخصيات مكللة بالشهرة تأتي لتزين واجهة مكتبته، محاطة بأشرطة بألوان علم البلاد، وفي عام ١٩٣٣، وقبل جريمته الثلاثية بعدة أيام، كان المفروض أنه سينشر قائمة بجميع تلك الشهادات التي تلقاها بتلك الطريقة والتي من شأنها أن تملأ لا أقل من صفحة كاملة من الجريدة.

لكن حالياً، وأنا في السادسة عشرة، أصبحت زميله، لا في الصحافة بعد، وإنما في المكتبة. فإن وفاة والدي قد اضطرتني للعمل واشتغلت طوال شهر مستخدماً في غرفة المطالعة الصغيرة، التي كان زملائي في الاعدادية زبائنها

والتي وقع عليّ أن أطرد من عملي فيها لما أبديت من قلة الاحترام لرب العمل.

كانت المرحلة الوطنية مستمرة بعد. والنساء يرتدين على رؤوسهن عمرات الشرطة، والنقاش جار حول «حصة المحارب»، وحول الشارات التي توضع على الساعد والخنادق والأوسمة، عندما ذات صباح، ومن دون سبب، بكل بساطة لأنني كنت ماراً أمام إحدى الصحف، قررت الدخول وأن أطلب أن أعمل محرر تقارير إخبارية فيها.

وكنت في السادسة عشرة وبضعة أشهر، وفي اليوم التالي تسلمت عملي، ومن يومها، أخذت أصعد مائة مرة في العام الى حصن لونسان وراء أكثر الوفود تنوعاً: مجلس باريس البلدي، الأمهات الامريكيات، امبراطور الحبشة، أو الامير هيرو - هيتو، ملك ايطاليا، ورئيس مجلس أي مكان كان، ومراسم لا تتبدل، موكب سيارات منذ محطة القطار المزينة بالأعلام، ثم ذلك الطريق الذي لا ينتهي نحو الحصن البطولي وخطاب قائده، والعودة الى مصنع الأسلحة في هيرستال (شامبانيا على شرف الضيوف) والوصول المظفر الى دار البلدية (وقعة طعام بارد وقوفاً) ثم...

كنت أنتسب الى الجريدة الأكثر رصانة في المدينة وأنا المحرر الأصغر عمراً فيها. وما زلت أتذكر أنني بمناسبة أول عشاء رسمي حضرته، استعرت، لا بزة رسمية للسهرة، بدا لي أنها شيء مبتذل، بل سترة مفتوحة الردفين للاحتفالات، رمادية، ولست موقناً من أنني لم أرفقها بربطة عنق بيضاء وقفازين بلون زبدة نضرة.

والأمر هو أنه بعد مدة من ذلك الوقت، وخلال غداء تحت عنوان: «المدينة المتقدة» على ما اعتقد، انتصبت فجأة على طاولة الشرف التي كنت عندها مع زملائي، لأقذف بصوت مرتفع وواضح الكلمات تماماً:

- أنا أخلي المكان. يعاف المرء نفسه من الضجر!

وبعد ذلك فراغ كبير. وعندما أفقت، كنت في سريري، رأسي ضخم ورنان مثل طبل. وبعد قليل، وجدت أمي تنتحب وأخي ينظر إلي بارتياع.

وسألت بلهجة تدل على راحة وثقة:

- ماذا هنالك؟

- ألا تدري أن بعض الجيران لمّوك من على العتبة في السادسة صباحاً وأن الأمر تطلب ثلاثة أشخاص لحملك الى سريرك؟

لا، لم أكن أدري. وأخذت أتفحص بذهول مدية ضخمة يبدو أنهم وجدوها في جيب معطفي الغباردين.

- ماذا فعلت؟

وهل أدري أنا؟ ولو أنهم أكدوا لي أنني كنت قتلت أحدهم لكان من شأني أن أصدق.

وقبل كل شيء هرعت الى الجريدة، وفي ذهني أن أتصل هاتفياً بزملائي لأستفهم منهم عن أعمالي وتصرفاتي الشخصية. وفي ردهة المدخل، التقيت بالحاجب الذي هز رأسه بيأس:

- يا إلهي! كيف أمكنك أن تفعل ذلك؟

- أفعل ماذا؟

- ألا تعرف؟ إنها كارثة!

وعلمت أنني جئت الجريدة من دون قبعة، وبيدي عصا محطمة، حوالي الخامسة بعد الظهر، وأنني هناك تقيأت كل ما أمكنني تقيؤه. وقد تولى رب العمل العناية بي، وحاول أن يسقيني بعض القهوة الساخنة، وهذا تصرف عليه اجماع. ولكن ما ليس كذلك، هو أنني قذفت بالقهوة على رأسه وأنا أزعق:

- أنت، أنت جبان كبير وأخ مزيف! تماماً! وأعرف ما أقول!

وهو الآن ينتظرني كما ينبغي. وقد بدأ بطردي. ثم عاد فاستدعاني مجدداً، فهو رجل طيب، وأعلن لي أنه سيقوم بمحاولة أخرى معي. ولكنهم لن يبعثوا بي بعد الى مناسبات فيها ولائم.

وعقب ذلك، اتصل بي أحد الزملاء بالهاتف:

- هل حالك أحسن الآن؟ هل عدت عثرت على راقصتك؟

- راقصتي؟

- تحسن صنعاً بأن تمر على «التريانون» لتعتذر...

- أعتذر عن ماذا؟

- خبّر دوبلوويه بالهاتف. فهو الذي مزج لك الأشربة في كأسك. لم يكن يعرف أن الأثر سيكون صاعقاً بهذا القدر. إنه تبعك كل بعد الظهر...

دوبلوويه، إه بلى! كنت أعرفه معرفة بسيطة أو يكاد. كان أكبر عمراً مني، في الثلاثين على الأقل، ويرتدي معاطف محزومة عند الخصر تبهرني، ويتلاعب وهو يمشي بخيزرانة ذات مقبض ذهبي. كان فتى جميلاً، دقيق الملامح، له شاربان معقوفان وحركات متكلفة بعض الشيء. لم يكن أكبر عمراً مني

فقط، بل إنه سبق له أن مارس الصحافة في باريس ومدينة ليبج، ويحرر رقعة يومية بتوقيع: فينيسيوس.

- ألو! دوبلوويه؟ قل لي يا صاحبي، يبدو أنني البارحة...

وشيئاً فشيئاً أخذت فراغات ذاكرتي تمتلئ، أشبه بلعبة تغطية المربعات الخالية في لعبة اللوتو، وعلمت كل شيء: فبعد مغادرتي الوليمة وسط صمت جليدي، هرعت الى مسرح التريانون حيث يقدمون عرضاً لفترة بعد الظهر، ونفذت الى الكواليس مندفعاً فيها، وانطلقت أطارد راقصة فاجتزت المسرح في أعقابها وأنا أصرخ، ثم إنني...

وقال دوبلوويه بازدراء:

- ليتني علمت فقط أنك ولد صغير الى هذا الحد...

وبقصد تهدئتي، فإنه اصطحبني الى بيت للنساء له فيه صديقات، وهناك، على ما يبدو، اختلست المدية بعدما مزقت قميصاً أو فستاناً...

لا يهم... الأمر انقضى... طردت من الجريدة وسأدفع ثمن ذلك بأن أتحمل حتى آخر عمري لوم أمي، التي غاظها بخاصة أنني التقطني بعض جيراننا من الأرض.

ما يهم، هو أنني قد بتّ من الآن صديق دوبلوويه، وأن مكتبي تحرير جريدتينا باعتبارهما قريبين، فسيترتب أن نقطع معاً في كل يوم الطريق الذي يفصلنا عن حيّنا، هو محركاً بنبالة عصاه ومتفرساً بالمارة بنظرات تتجاوز الأدب ومن دون أن يتوقف عن اصدار أحكام وكأنها الحقائق الأولى، وأنا متلهف ومعجب، أو على الأقل الى أن جاء اليوم الذي فيه...

كان علينا أن نلتقي بلا انقطاع في رحلات الحج الى

لونسان، خلال زيارات الكبراء الأجانب الى مصنع الأسلحة، وفي حفلات دار المحافظة، في مؤتمرات المحاربين القدماء، وفي الاستعراضات التي تتقدمها فرق الموسيقى، وفي المحاضرات الوطنية أو الأدبية.

بالمناسبة، سيذهب واحد منا نيابة عن الاثنين وفي صباح اليوم التالي يتصل هاتفياً بزميله.

وقال لي دوبلوويه:

- هل تدرك ذلك! في باريس، كنا مرتبين الأمور بصورة مختلفة تماماً. وأذكر أن كليمانصو قال لي يوماً...

- وهل تعرف كليمانصو!

- ولو! لقد عملنا في المكتب ذاته. رجل طيب في الواقع! ما عدت أعرف كم مرة تناولت العشاء فيها معه في شارع الكرواسان: الهلال. بل كنت أقول لتارديو...

لا أريد أن أتباهى بنفسي، إنما أقسم على أنني، رغم كل شيء، كنت تساورني بعض الشكوك. ومع ذلك، لم أكن أجري أية مقارنة بعد مع هياسنت دانس الذي كان يرفع على واجهته ملصقة عالياً رسائل الملك ألبير والرئيس بوانكاريه والعديد من كبار الشخصيات.

وبعد سنوات وسنوات، وبعد أن أقدم دانس على القتل، وقع على موريس غارسون أن يكثر في مرافعته الدفاعية من تكرار كلمة: جنون العظمة.

وفي باريس، في حوالي نفس الفترة، فإن دوبلوويه الذي أقدم هو أيضاً على القتل، أعتقد أن محاميه لم يفلت من يده وسيلة استخدام ذريعة مطابقة.

- هل تدرك ذلك! هنا لا يعرفون شيئاً عن الصحافة، ولا عن أي شيء كان! وهم يتكلمون عن الحرب من دون أن يتطرق إليهم الشك بأننا نحن، في المكتب الثاني...

- آه! كنت؟...

- ولو!... إليك بهذه... أذكر أنني ذات ليلة وأثناء العشاء، اعترفت لي اليزابيت قائلة: «يا صغيري دوبلوويه، يجب أن...»

- عفواً؛ أية اليزابيت؟

- الملكة!

كنت في السادسة عشرة والنصف من عمري، أو السابعة عشرة، هل تفهمون؟ وكنت أصغي، وكنت أنظر بشيء من الاحترام الى هذا الرجل الذي كان يشرب كؤوس فاتح الشهية ممزوجاً بالماء بينما أكتفي أنا بالجعة.

ذات يوم أدهشني عن حق. كان قد أخذني مجدداً الى بيت الهوى الشهير إياه الذي لم أكن حتى أتذكره لفرط ما كنت سكران في المرة الاولى.

وهو لم يدخل الى هناك خلسة، متسللاً بمحاذاة الحيطان، كما رأيت دائماً الآخرين يفعلون، بل على العكس فهو كان يضفي بعض الجهر الاستعراضي على الأمر، وما كان ليسوءه أن تؤخذ صورة له وهو على عتبة ذلك البيت. قبعته المستديرة عريضة الحواف مدفوعة الى الوراء، يداه في الجيبين، وعكازه مسند على كتفه وكأنه سيف، وسيكارته ملتصقة على شفته السفلى، لقد دفع بقدمه باب «صالة المرايا»، وغمغم موجهاً كلامه لصاحبة البيت:

- على ما يرام؟

ـ وأنت يا سيد فيرديناند؟

ـ هل رونيه فوق. ابعثي لنا بما نشربه، ونادي إحداهن لتبقى بصحبة صديقي...

هو، مستخفٍ، يدخل الى الكواليس، وكنت أسمعه يتبسط هازلاً في أيما غرفة كانت فيها نساء، ثم صعد الى الطابق العلوي، حيث لم تكن رونيه قد نهضت بعد.

وسألتني المرأة التي جاءت وهي بالقميص لتجلس بجانبي على المقعد الطويل المنجّد بالمخمل الأسود:

ـ هل أنت صديق فيرديناند؟ أصحيح أنه يريد أن يأخذ رونيه معه الى اسبانيا؟

– لا أعرف.

لم يكن عليها أن تراقبني طويلاً لتتبين أنني لا أعرف شيئاً كثيراً.

ـ ماذا تشرب؟

فقد نزل دوبلوويه ثانية، وكأنه في بيته، وفتح خزانة حائطية وأخذ يصب لنفسه كأساً من الفيرموت. ثم أخذ، وبصوت منخفض، يتناقش مع صاحبة البيت وفهمت أنه كان يتكلم عن نقود.

ـ إذا ما قالت ذلك لك، فمعناه أنها لم تحقق أكثر من ذلك! فأنت تعرف جيداً أن رونيه نظامية!

وأخيراً جلس، وأصبح الحديث عاماً. أخذ يتكلم عن الجريدة، وعن الأحداث الجارية، كرجل يعرف كل المستور، وكانت النزيلات الداخليات يأتين بعضهن وراء بعض ويجلسن حوله.

- أتعتقد أنهم سيشنقون القيصر؟

ذلك أن الأمر كان أحد شواغل تلك الفترة ما يزال.

- والمارك؟ لقد ذهب صديقي في الاسبوع الماضي الى ألمانيا حيث اشترى ساعة من الذهب بثلاثين فرنكاً...

كان دوبلوويه عديم التأثر بكل تلك الأفخاذ العارية من حوله، والنهود التي تفلت أحياناً من القمصان الصغيرة.

ورأيت رونيه وهي تنزل، امرأة كبيرة القامة الى حد، سمراء، لها وبر، وصوت أجش بعض الشيء، وطلبت على الفور شراباً.

وبعد ساعة، في الشارع، أوضح لي وليس من دون رنة مباهاة في صوته:

- وإذا قلت لك إنها تدر عليّ أكثر مما أربحه من الجريدة؟ هذا هو السبب في أنني أريدها أن تستقر في برشلونة. هناك، أفضل حتى من هنا.

وبعد شهر، أعلن لي بهدوء:

- تعال لترى مطبعتي...

ولم يكن ذلك خداعاً. فقد أنشأ مطبعة وكان يملك آلات، وعنده عمال ومصححون، كل ذلك من دون أن يتخلى عن وظيفته في الجريدة.

– اكتب لي رواية وسأنشرها لك.

ذلك أيضاً لم يكن خدعة. والروايات، نشر منها اثنتين أو ثلاثاً لمؤلفين شباب. وأثارت طريقة عرض الكتب إعجابنا الشديد بحداثتها.

سوى أنه كان ينشر أيضاً مجلة سياسية بالتعاون مع شخص أجنبي، وذات يوم أعلن لنا:

- أجبروني على الاغلاق.

- من؟

- المكتب الثاني.

تلك المرة أعتقد أن الأمر كان حقيقة، إذ عدت فيما بعد ووجدت اسم من تعاون دوبلوويه معه على قائمة المشبوهين في معظم البلدان الغربية.

دانس ودوبلوويه لم يكن يعرف أحدهما الآخر بعد. أو بالأحرى فإن دانس كان يقرأ ولا بد المقالات المذيلة بتوقيع فينيسيوس، في حين أن دوبلوويه، مثل كل الناس، كان يلقي نظرة عابرة على الواجهات الملتبسة التي لصاحب المكتبة.

والأمر، أن هذا وذاك كان مكتوباً عليهما أن يقتلا، بفاصل بضعة أشهر من الزمن، كما أن كلا منهما، وبفاصل أسابيع بين الاثنين، أقدم على تصرف مطابق لما قام به الآخر.

وكان كلاهما من عائلة طيبة. الأول درس في مدارس الرهبان الجيزويت، والآخر تابع دراسته في المدرسة الثانوية.

ولكل منهما، امرأة طيبة كأم، تنتسب الى تلك البرجوازية الصغيرة حيث النزاهة والشرف نوع من القدر الولادي.

خلال الحرب، تردد دانس على مقر الحاكم العسكري.

وبعد الحرب، افتتح دوبلوويه مطبعة بمال حكومة أجنبية.

دانس يقوم بصبر بتجميع الشهادات فيه الصادرة عن كبار الشخصيات وينظم قصائد ذات بلادة بدائية لفرط تقليديتها.

وفي نفس الفترة، دوبلوويه وفي كل يوم، ينشر تحت توقيع فينيسيوس، في جريدته، أبيات شعر تافهة، بينما في مجالسه الخاصة، يتكلم عن صلاته مع أقوياء الساعة.

كان دوبلوويه قد تزوج في الماضي وطلق. ويطلق دانس بدوره.

كان دانس أيام الحرب يستخدم جواز سفره المحاط بالأسرار ليستدرج إليه الفتيات الصغيرات.

ودوبلوويه استأجر شقة صغيرة غير بعيد عن المدرسة المتوسطة للبنات، يترصد التلميذات عند خروجهن ويجتذبهن ملوحاً بكؤوس فاتح الشهية فاقعة الألوان وبالحلويات.

ذلك لم يمنع دوبلوويه من الرحيل ذات صباح الى برشلونة برفقة رونيه حيث جعلها تستقر في بيت للهوى هناك وتدر عليه ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما كان عليه الأمر في الماضي.

وفي نفس الوقت تقريباً، قام هياسنت برحلة الى جنوب فرنسا، وهو إذا ما سافر وحيداً في ذهابه، فإنه عاد من هناك برفقة امرأة.

ولم تكن رونيه تلك التي عاد بها. وإلا لكان الأمر بجمال رواية. إنما واحدة من مثيلاته، امرأة متعيشة من أحد بيوت الهوى جعلها دانس تستقر في لييج وأخذ يذهب لرؤيتها كما كان الأول يفعل بالنسبة لعشيقته.

عند الواحد وعند الآخر، هل يكنّ أي منهما حبّاً؟

لا آخذ الاجابة على عاتقي. دانس على أية حال سيقتل عشيقته يوم قررت تركه. وعندما سيقتل دوبلوويه تيجالدا بطلقات من مسدس، في شقة مفروشة بشارع موبوج، سيحدث ذلك لأن الاسباني كان قد أخذ منه «امرأته».

في ذلك الزمن لم أكن أعرف. لا أحد كان يعرف، حتى ولا الأشخاص المعنيون. ثلاث مرات كنت أذهب الى مكتبة دانس

اسبوعياً، وأتناقش معه حول المطبوعات الجديدة التي ظهرت مؤخراً، أو أراوغ معه طوال ساعات لأشتري منه بسعر منخفض كتاباً بطبعته الأصلية.

وكان ممثلاً له براعة ابليس وأراهن على أنه كان يدرس تعبيرات وجهه أمام المرآة. وبالمقابل فقد كان ثمة تفصيل يثير الضيق، لأنني كنت في عمر لا تفوت الانتباه فيه مثل هذه التفاصيل. ذلك أن دانس كان قد تبنى، ليعيش وسط الغبار، ارتداء مئزر أبيض فوق ملابسه. والأمر هو أن يده، تحت المئزر، كانت تظل في جيبه، وكنت أجد في ابتسامته ندى رطباً ملتبساً.

وظل الصعود الى حصن لونسان مستمراً، واستعراض الألوية العسكرية، وأخذ المحاربون القدماء ينظمون المواكب بينما بدأت الشرطة، مرة هنا ومرة هناك توقف العملاء لشيوعية لم يكن أحد يعرف شيئاً عنها تقريباً.

وكانت روايتي الأولى قد انتهت كتابتها للتو عندما أغلقت مطبعة دويلوويه أبوابها. كان عنوانها: «عند جسر القناطر»، ذلك الجسر الذي نجتازه كلانا يومياً ونحن نثرثر بألفة.

وقد تعلمت ألا أحدث فضائح بعد في المآدب وألا أقذف بالقهوة الساخنة على رأس رئيس التحرير بحيث أن جريدتي وعلى الرغم من تزمتها لم تعد تقلق لنوع الناس الذين أخالطهم.

وذات مساء، وبدلاً من أن يقودني الى دار البغاء، حيث لم تعد له مصالح تجارية فيها، اصطحبني الى «الحمار الأحمر»، واكتشفت فيه عالماً كان غريباً عليّ بنفس القدر.

وكان ذلك في زقاق زري، محاصر بين شارعين عريضين رئيسيين، حانة على طريقة مونمارتر، مع جماجم موتى على الجدران وصور كاريكاتورية للشخصيات المشهورة، وقطع أثاث تقلد الأثاث الريفي، وبضعة فنانين من باريس يعملون بعشرين فرنكاً في اليوم وينامون في نفس بناء الحانة.

أحدهم، وقد بقي مدة طويلة هناك، أصبح شبه مشهور. وإحدى الفتيات الصغيرات، التي كانت تغني أغنيات واقعية، عرفت مجداً مفاجئاً في مسارح المنوعات في باريس وماتت في العام التالي.

كان دويلوويه يتحرك في المكان بنفس سهولة الحركة التي كان يتحرك فيها في دار البغاء تلك، وقدمني الى عصبة من الزبائن شديدي الضجيج، أولئك الذين كانوا يرددون جماعة أغنية «رهبان القديس بيرناردان»...

- أصدقاء رسامون...

وبينهم كان ك... الصغير. على مقربة من حاجز المحاسبة شخص له شعر مرسل ودسم، وياقة شديدة القذارة، يظل يدس شيئاً في أنفه وينظر إلينا من دون أن يرانا. لم نكن نثير اهتمامه. كان يترصد الزبائن الحقيقيين، الذين يصلون فجأة مثيرين الذهول وفي جيوبهم مال. كان يقترب من طاولتهم بوجه جنائزي ومزدر.

- أتريد أن أقول لك كيف ستموت؟... هات يدك... هات...

ويأخذها بالقوة إذا لزم الأمر، ويجلس يشرب من كأس الزبون ويغمغم:

- أرى حادثاً خطراً جداً... إنك لم تكن يوماً قوي البنية...

لم أكن أعرف من هو بعد. لم أكن أعرف أحداً. ومثلما كنت تعلمت أغنية لا مادلون بعد الحرب، فقد أخذت أحاول حفظ لوازم الأغنيات التي ينشدونها وهم يشربون، وبخاصة تلك التي باللغة اللاتينية إذ كانت تستهويني بصورة خاصة.

وقال دوبلوويه بعدما انتهى الفقير من أحد محدثي النعمة:

- أتشرب قدحاً؟... كيف حال «البيزنس»؟...

- بخلاء! شحيحون! رقعاء!...

- أقدم لك...

كان المكان صغيراً، عابقاً بالدخان، نوع من محاكاة للـ«أرنب السريع». وكان مغنو الأغنيات الانتقادية وقوالات يلقين الطرائف، يأتون ليجلسوا الى طاولتنا، وكذلك الشراب، فهو كان يحسبونه لنا بالسعر الخاص بالفنانين.

وعلى الرغم من «سكرتي» التاريخية، فأنا لم أكن معتاداً على تعاطي الشراب، وحوالي الساعة الثالثة، وأنا عائد الى البيت مع صديق من الأصدقاء، كنت سأجد صعوبة بالغة لو شئت إعطاء تفاصيل عن السهرة.

ما أعرفه هو أنني توقفت في منتصف الجسر، ونظرت الى نهر الموز الذي يغلفه الضباب وأنا ألقى بصوت بليغ:

- في الأربعين من عمري سأغدو وزيراً أو عضواً في الأكاديمية.

لأنني، اعتباراً من حينها، بات لي أصدقاء يلوحون لي منتدبين جميعاً لأرقى الأقدار، منذ الفقير، الذي كان يزعم أنه فقير هندي حقيقي وأصيل، حتى أولئك الرسامين الذين يتكلمون عن رامبراندت وكأنهم يتكلمون عن زميل، بمن فيهم

ك...، الذي كان الجميع يرددون عنه أنه يملك موهبة تضاهي موهبة الشاعرفيرلين.

واستناداً الى ذلك، لماذا لا تكون لي أيضاً، أنا، عبقرية؟ لم أكن أعرف أيتها بالضبط. ربما في السياسية. وربما في الأدب.

ونمت نوماً بالغ الثقل. وفي اليوم التالي تفحصتني أمي بارتياب وشعرت بالحاجة لأن تذكرني بحكاية المدية.

- في عمرك، ما كان أبوك ليسمح لنفسه بأن يعود في الثالثة صباحاً...

وقدر لي، اعتباراً من حينها، أن أعود في وقت أكثر تأخراً بكثير، في الرابعة، أو الخامسة وحتى ألا أعود بالمرة، وبكل بساطة لأن دويلوويه قد عرفني الى الفقير والى عصبة الرسامين والى الصغير ك... ولأن...

ولأن ذلك كله كان، مرة أخرى، سينتهي بموتى، وبأناس في السجن أو في الأشغال الشاقة، وبـ...

مرحلة الحرب كانت انتهت، بفتياتها الصغيرات تحت أعمدة النور وغلى العتبات المبللة. مرحلة الوطنية ولت، بذلك الحج الى لونسان وبزياراتها، يقوم بها الدبلوماسيون الأجانب الى المصنع الوطني للأسلحة؛ وأخذت تبدأ مرحلة أخرى فنية، صوفية، مشعثة الشعر وداخنة، وهذه هي التي ستوقع الميت الأول.

فإن دانس، في نفس المرحلة، أصابه هوى العلوم الروحانية الغيبية، ولئن صعب عليه التطلع الى لقب فقير، فهو لن يتأخر بأن يُقطع لنفسه مقام ساحر مجوسي.

لينتهي أيضاً في بركة دم.



- ٣ -

- آه! السعادة. أن تضم إليك لعناقها عذراء ذات سرّة متقيحة!... بهذا كان يهتف، يخيم الظلام على نظرته، ذلك الرسام ذو العشرين عاماً.

إنما يجب أن أروي بتفاصيلها كيف كانت تجري الأمور في ذلك العالم الجديد الذي أدخلني دوبلوويه إليه، ذات ليلة في «الحمار الأحمر»، والفقير يكسب قوت يومه بقراءة خطوط الكف وباد عليه تعبير قرف بلغ ذراه.

كانوا بضعة - كنا، بالأحرى، بضعة أفراد ما دمت سأصير واحداً منهم لمدة من الزمن - في التردد بأكثر أو أقل انتظاماً على أكاديمية الفنون الجميلة وفي ارتداء الزي الرومانتيكي للرسامين: قبعة اسبانية الطراز سوداء عريضة الحواف، وربطة عنق معقودة عريضة بطريقة لافالبير.

ولقد جاؤوا من كل أحياء المدينة وطبقات المجتمع: فأحدهم كان ابن صناعي من أكبر منتجي شمع تلميع الأحذية،

وآخر، الصغير ك...، كان أبوه يعمل فاعلاً، وأرمل، وسكران على الدوام. كان بيننا أولاد تجار وابن أستاذ في الجامعة؛ الأصغر عمراً في الثامنة عشرة والأكبر عمراً في الثالثة أو الرابعة والعشرين.

وصوفيتهم، التي قدر لي أن أتبناها بنفس الوقت مع ربطة العنق لافاليير، هل كان مصدرها الحرب أو، وبأبسط، آتية من الشعراء الملعونين الذين كان مقصوداً تلاوة أشعارهم في «الحمار الأحمر؟». أتراها ولدت من كتاب أساء أحدهم قراءته وهضمه؟

لا أدري. اليوم بشكل خاص أطرح السؤال على نفسي. فأنا في آخر الأمر، يوم كنت في المدرسة الاعدادية كنت عضواً في فريقها لكرة القدم، ومنذ أصبحت محرر تقارير صحفية. فأكبر أفراحي كان في أن أمتطي الدراجة النارية وأهرب قاصداً الريف.

كنت أقرأ كثيراً، قطعاً، ولكن كتّابي المفضلين كانوا بالزاك وديكنز ودوماس الذين لا شيء عندهم يكنّ جنوحاً مرضياً بشكل خاص. وأنا على يقين من أنه لو وجدت في ذلك الحين مجموعات من الفتيان والفتيات يهرعون كل يوم سبت الى الطبيعة الجياشة بغناها، مزودين بأدوات التزحلق على الجليد أو بالقوارب القابلة للطي والخيم لإقامة معسكر ومعدات التربية البدنية لانضممت إليهم بحماسة.

لكن لم يكن لذلك وجود! ومدينة مثل لييج كانت تشهد أسبوعياً أربعة معارض للرسم وجميع سكان المدينة يمرون متعاقبين أمام اللوحات، والجرائد التي لم يكن فيها إذ ذاك

للرياضة ثلاثة صفحات، كانت تخصص أعمدة بكاملها لرسامين في العشرين من عمرهم ولدواوين شعرية دقيقة القدّ.

أبطال الساعة إذن كانوا أصدقائي الجدد، الذين كان بمقدورهم أن يذرعوا «المربع» جيئة وذهاباً وهم على يقين تام بأنهم قبلة أنظار الناس.

وكما توجب في «الحمار الأحمر» أن أتعلم أغنية: رهبان القديس بيرنادان، وكما عند توقيع الهدنة اكتشفت أغنية لا مادولون، فقد وقع علي هنا، متنكراً لبالزاك ودوماس، أن أخوض النقاش على مدى النظر في أمر «لا نهائي»، «يسوده الابهام» وحول «الموضوعي» و«الذاتي»، وتسوّد أي من الاثنين: رامبراندت أم ليونار دو فينشي، بودلير أم فيرلين، وأفلاطون أم بيرون؟

أما يزال يوجد اليوم في مكان ما شباب يلاحقون بتوحش، كما كنا نفعل حينذاك، الحماسة الخارجة عن الطور، حماسة خارجة عن الطور، لأي شيء، الجسد، الحواس، الروح، بكل الوسائل التي يمكن أن تخطر على بال، حتى باللجوء الى سبل مصطنعة من شأنها استثارتها، أو الى وصفات دقيقة التفصيل ومقننة، مشابهة لما عند المهووسين جنسياً؟

وفي البداية، لم يكن ذلك إلا طارئاً ومرتجلاً بعد. وكنا نتلاقى كيفما اتفق، مصادفة، مرّة عند الواحد ومرّة عند الآخر، وفي معظم الأحيان عند رسام له محترَف في سقيفة دار أبويه. وكان كل يحضر في جيبه زجاجة شراب وآخر قصيدة نبشها من مكان ما أو لقية فلسفية وقع عليها.

ومـا كـان يمكن أن يسـتـمـر الأمـر على تلك الصـورة. فالمسكين الذي كان يجري ذلك عنده يضطر في اليوم التالي لأن يجابه عائلته التي لم تستطع أن يغمض لها جفن والتي كانت تجد في كل مكان قيئاً، على الادراج وفي المراحيض، وأشياء محطمة، وجهاز الهاتف منتزعاً، عندما لا يكون ذلك شابين أو ثلاثة متروكين على مصطبة الدرج...

ومن ناحية أخرى، فمن حيث الحماسة الخارجة عن الطور، أخذنا نصبح أكثر فأكثر صعوبة في الارضاء؛ وباتت مستلزمات مرافقة عديدة ضرورية لنا، وفي ذلك الإطار ولد ذات يوم «الكاك» وظهر الى الوجود، مأخوذة الكلمة من البرميل الذي تكبس فيه أسماك الرنكة المملحة أو المدخنة.

وهو يقع وراء كنيسة القديس فوليان، في دار خربة، في آخر فسحة دار يؤهلها صناع حرفيون صغار، غرفة صغيرة استخدمها فيما مضى نجار أثاث ورشة له، واستأجرناها مقابل ثلاثين أو أربعين فرنكاً في الشهر. كان الديكور يذكر بالقرون الوسطى بقدر ما نهوى، وكان الوصول الى المكان مشؤوماً لدرجة، بحيث أن ما من واحد منا كان يجرؤ على أن يغامر فيه وحيداً.

ومع ذلك، فأول شيء أحضرناه كان هيكلاً عظمياً شبه كامل. ووجد أحدهم في بيته خشبتين عتيقتين للجلوس جاء بهما وآخر أتى بقطعة قماش أحمر من القطن، وأنا جلبت عموداً منتهياً بشمعدانات اكتشفته في السقيفة التي تحشر أمي فيها الأشياء غير المستعملة والتي لم تفهم أبداً السر في اختفاء الشمعدان.

ماذا كان هنالك أيضاً؟ كل شيء ولا شيء. عبارات غامضة مقتطفة من ألبير الكبير الفيلسوف اللاهوتي الدومنيكاني وأستاذ توما الاكويني، رسوم جنسية عارية على الجدران، وأقداح مثلمة، وكؤوس لا تغسل أبداً، وأخيراً، زجاجات فارغة يزداد عددها باضطراد.

وكان كلّ في الليل، عقب العشاء، يغادر بيت أهله، وسرعان ما نصبح عدة في «الكاك» ننبش في أعماق جيوبنا بحثاً عن ثمن شراب، أي نوع كان، المهم أنه شراب بأقل نقود، ويسكر بأسرع وقت.

كان شمعداني قوي الاضاءة زيادة عن الحد، فآثروا عليه شمعة، أحيطت فوق ذلك بورق أحمر، بحيث أن المرء ما عاد يرى شيئاً، وإنما تستشف النظرة أشكالاً ممددة على الأرض أو على الفرش، ووجوها أحالها الضوء الأحمر مكفهرة اللون، والتي كانت جميعها مع ذلك وجوه فتية في الثامنة عشرة أو في الرابعة و العشرين.

وتبدأ السهرة دائماً تقريباً بـ: «أيام الجنون»، ما لم يكن ذلك بـ: «من الأعماق» وأخيراً، من العتمة، يقذف أحدهم بـ:

- وماذا لو عاد رامبراندت الى عصرنا؟...

- من الذي يتكلم عن رامبراندت؟ أنا، أقول إن التصوير الميت..

كان نهر الموز يجري على بعد خطوتين. وثمة بشر في مكان ما لا بد وأنهم يعيشون حياة طبيعية، بينما في أعماق باحة دار قذرة كان أوار المناقشة يشتد، ويقذف كل رأس الآخر باستشهادات عن فلاسفة يونان أو رومان اكتشفهم في اليوم

نفسه، وأخيراً يتقرر عقد الصلح بالعناق وذرف الدموع.

ذلك أننا كنا نذهب بشكل متواصل للإتيان بزجاجات جديدة، في آخر المقاهي التي ما تزال مفتوحة. والقادم الجديد كان يجد نفسه وقد طوقته حالاً وجوه جزعة تسأل:

- كم تحمل معك؟

- ستة فرنكات...

- هاتها! ما عاد عندنا شيء نشربه.

كان التدخين كثيراً، يتكاثف الجوّ له. وينتحب أحدهم من دونما سبب فلا يأبه للأمر كائن من كان، وآخر، هو نفسه دائماً، وكما تأتي النوبة أحدهم، كان يخلع فجأة ملابسه، ويلتف في ثوب قديم لداخل المنزل قاني اللون، ويهتف بصوت مأسوي وإلهام:

- اذا ما دخل الله الآب فجأة علينا، فماذا تعتقدون بأنه سيقول عندما يراني؟ حسناً أطلب ذلك إليه، أنا، لله الآب، أن يملك الشجاعة ويدفع هذا الباب، وأن يظهر نفسه...

لم يكن أحد يضحك. كان الوقت متأخراً. والمدينة غارقة في النوم ووجوه متوترة تلتفت ناحية هذا الباب الذي ربما سيتحرك.

- أيها الرب - الآب، اسمعني! لا تظن أني أهزل! فأنا صادق! أطلب إليك مرة.. اثنتين... ثلاث مرات...

وأحدهم يهمس وقد سرت الرعدة في اوصاله:

- وماذا لو استحضرت الشيطان؟

- أي واحد منهم؟

وعندئذ، فجأة، يأخذ الصغير ك...، الذي كان يفرغ كؤوس

الكل، بالتدحرج على الأرض وقد علا فمه الزبد مصدراً حشرجات من حلقه، فريسة لهجمة عصبية أو لنوبة صرع.

ويجأر صوت:

- شيطان، أهو أنت الذي تظهر نفسك ولسان حالك صديقنا ك...، إن كنت أنت، فأجب...

كان النبيذ يقف غالي الكلفة علينا، ويستغرق وقتاً طويلاً في إحداث مفعوله. وحتى الكحول لم يلبث أن بدا لنا مفرطاً في بطئه فجاء لنا أحدهم ذات ليلة من صديقته الصغيرة التي تعمل بائعة عند أحد الصيادلة، بزجاجة أثير.

وأحضر لنا أيضاً صديقته الصغيرة، تدعى شارلوت، التي أخذت مكانها على إحدى الأرائك بين الأجسام التي لم يعد بها حول.

- ... عناق عذراء، تضمها إليك، ذات سرة متقيحة...

ذلك الذي، من دون أن يضحك، جهر بهذه الرغبة، كان رساماً في العشرين، جميل وله مجد، معروف في كل المدينة بمعارضه، التي كان يبيع فيها كل ما يريد.

وكان هو أيضاً الذي، في الثانية بعد منتصف الليل، يتحدى الله الآب والذي بعد ساعة من ذلك خرّ راكعاً، طالباً من الجميع أن يعترف بذنوبه مستغفراً، عقوبة على ما صدر عنه من استكبار.

كان دوبلوويه يأتي أحياناً، ويبقى بضع دقائق، لا ينطق إلا بكلام فيه ما يكفي من الازدراء، ويلقي نظرة فضولية على شارلوت أو على فتاة صغيرة أخرى تكون هناك.

راقصة صغيرة في السادسة عشرة، مصابة بسل وشفافة

الجلد، لا تدع أي اجتماع يفوتها، وترتعش طوال ساعات بينما عيناها المحمومتان المحاطتان بهالتين تظلان مثبتتين على نقطة مبهمة في الفراغ...

ـ ذلك الذي لا يؤمن لا بالله ولا بالعبقرية...

لكن ألم نكن جميعنا عباقرة؟ عباقرة، إنما للأسف، لم تكن لهم معدة قوية جداً، ولا أعصاب، بحيث أنه في الصباح الباكر كانت تجري مشاهد تثير الرثاء.

في الأيام التالية، كانت تجري مشاهد غيرها، لا تقل عنها ضوضاء وصخباً، إنما مع الأهل الذين كانوا يرون فتياناً صغاراً يعودون مع الفجر محمري الجفون، يابسي الفم جفافاً، وفي نظرتهم تعال وازدراء.

وكان أحد أصدقائنا يعمل عند مصور فوتوغرافي، ويقوم بتكبير صور بقلم الفحم، الأمر الذي لم يكن يمنعه من أن يرسم بعد يوم العمل وأن يقضي الجزء الأكبر من لياليه في «الكاك».

وك...، أفقر الجميع على الاطلاق، كان يعمل مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع في أية ورشة بناء، أيا كانت، ويحمل القرميد على ظهره، أو يخلط الجص والاسمنت والحصى أو يتسلق السلالم.

وذات ليلة، عندما فتح الباب، أمكن للنظر أن يميز في الانارة المظلمة، وجهاً طويلاً أصفر، وشعراً دهنياً، يهوي على فراء ياقة عباءة قصيرة: كان ذلك هو الفقير، الذي سبق أن دعوناه والذي تنازل واستجاب لرجاءاتنا.

استمر ذلك ساعات. على الطاولة، كانت ثمة ورقة مثبتة

بجانب الشمعة بأربعة مسامير كبس. وكانت هذه الورقة مغطاة بشطوب ضيقة المسافات بينها، وعود ثقاب وضع بين اثنين من تلك الشطوب. والأمـــر هو أنه من دون أية حـــاجـــة لمستلزمات غير ذلك، كنا سنجد السبيل لأن يتصاعد توترنا العصبي لحد المرض، بحيث اعترى نبضنا تسارع مفرط، وتقطعت أنفاسنا، وبحيث استثار الأمر صرخات هستيرية تند عنا، واستنفد كل ما فينا من طاقة بأكثر مما تفعله أكثر السهرات الماجنة عربدة.

كنا ستة، وربما ثمانية.

- ما تزال الانارة زائدة عن الحد.

قال الفقير ذلك، بصوت كأنما يعلوه دسم زيتي مثله مثل جلده وشعره المشرقي.

كان يتجاوزنا برأسه مشرفاً علينا، وفي كل لحظة يرفرف بجناحي عباءته القصيرة ليخرج من أحد جيوبه بعضاً من مسحوق أبيض.

ووضعت الشمعة في الطرف الآخر من الغرفة لدرجة أنه كان لابد من جهد متصل لتبقى النظرة على تمييزها للخطوط المحيطة بعود الثقاب.

- انظروا الى عود الثقاب هذا بكل ارادتكم، وليلمس كل يد جاره على الجانبين. سترون نثارة الخشب هذه تتحرك مبدلة موضعها من حيّز الى آخر. انتبهوا، ولا تأتوا بحركة بعد.

وكانت شطوب القلم ينتهي الأمر بها لأن تتراقص على شبكة عينك، وأنا اليوم غير قادر على القول بحزم إن كان عود الثقاب قد تحرك. بعد ساعات على أية حال، وباعتبار أن

اعصابنا قد استوفزت مثل عصب عار، نشبت بيننا مناقشة تردت بالنهاية الى معركة، لأنه تشكل منا فريقان تجاه أمر الفقير وسلطانه.

ـ حسن جداً. وما دمتم تشكّون بي، سأضع واحداً منكم في حالة الخضوع بحركاته لارادتي.

واختار الصغير ك...، الذي ندت لا ارادياً عنه حركة تراجع. هل حصل على ما كان يسعى اليه؟ لا اعتقد ذلك أيضاً. ولكن مع طلوع الصباح فإن رفيقنا بدا وكأن عروقه فرغ ما فيها من دم وشفتاه ما تزالان ترتجفان.

ـ غداً... خلال بضعة أيام... يجب أن اعتاد على دور الوسيط في التنويم.

ما من أحد منا في تلك المرحلة لاح وكأنه يراود ذهنه بأن المرء قد يمكنه أن يسبح في الأنهار أو أن يتمرغ على العشب... حتى ولا أحد ذهب فكره الى مغامرة عاطفية بسيطة.

كن بضعاً، شارلوت، غبية وساجية، وهي البائعة الصغيرة عند الصيدلي، والتي لن يكتب لها أن تعيش طويلاً، واحدة أو اثنتان آخريان، وكن يكفيننا جميعاً.

ـ ... عذراء تكون سرّتها...

وكان الواحد منا يقول لشارلوت:

ـ أنت قبيحة وغبية. رائحتك منفرة. وأنا أحتقرك، ولكنني بحاجة لأن أضاجع، وسأحتقرك أكثر بعدها.

وكانت شارلوت تقبل، إذ كانت ترى بشكل مبهم وجودها وقد امتزج بوجود رامبراندات جدد وبشعراء أخر بمصاف فيللون.

وبنفس اللامبالاة الكئيبة، كانت تنقل الى الجميع نفس الجراثيم وذات المرض الذي لم يكن لحسن الحظ خطيراً جداً.

ألم نكن في تلك الآونة قريبين جداً من هيا سانت دانس، الذي كان يلتهم في القسم الخلفي من مكتبته كتاب «ألبير الكبير»، وكافة كتب السحر الأخرى، والذي كان يمضي بعدها لموافاة صاحبته في بيت الهوى؟ مع الفرق التالي، ربما، وهو أن إخلاصنا لما نحن فيه كان مطلقاً.

وللأسف، فلئن كان بعض منا يجد بعد خروجه من الكاك مائدة جيدة التغذية في بيته وعناية صحية مقبولة ومناخاً مهدئاً للنفس، فإن الآخرين، وهم الأكثر فقراً، ما كانوا يجدون إلا مسكناً قذراً، وأبا سكيراً، أو الوحدة ووقعات الطعام غير المنتظمة.

كان الفقير قد وعدنا بأن يرينا ك... وهو في حالة خضوع له في التنويم، وبعد ذلك بأيام برّ بوعده. وكان قد استغل المهلة وعاش مع ك... في الفندق الذي يقيم هو فيه، فندق لا يصدق، ولا يرتاده إلا أشخاص شديدو الغرابة ممن يعملون في السيرك وفي مسارح المنوعات.

وعندما عاد كلاهما الى الكاك، بدا ك... أكثر افتقاراً لألوان الحياة في وجهه من أي وقت مضى، وكان يتبع الآخر كرجل آلي.

- نم، آمرك بذلك!

ولم يطل الأمر، فبعد بضع اختلاجات، أصاب الفتى يباس كالحطبة. وعندما وضع ما بين كرسيين، ولا يكاد رأسه وقدماه

يمسان حافة أي منهما، فإنه تحمل من دون أية انثناءة ثقل ثلاثة منا.

- قل لنا الآن يا ك... مــــا الذي تراه. أريدك أن تذهب للبحث عن أمك... هل تجدها!...

كنا نرتجف، وقد جف حلقنا. وكنا نعرف جميعاً أن أم ك... كانت قد ماتت من الفاقة وأن ذلك هو بالنسبة إليه ذكرى تمزقه.

وعندئذ، ما كان إلا أن سمعنا صوته الذي تغير، يقول بلا مبالاة:

- أراها... ولكن لايبدو عليها أنها تعرفتني.

- وماذا تفعل؟

- لا أعرف... إنها ممسكة بقطعة ورق في يدها. وهي تتكلم إلى أحدهم. انتظر...

وفجأة، جاءت النوبة، فقد أخذ ك... يتخبط، ويصرخ من أعماقه صراخ عواء، ويزبد، وفتح أخيراً عينيه، وقد قضى وقتاً لابأس بطوله قبل أن يعرفنا، وأخيراً ابتسم ابتسامة خجولة سائلاً:

- ماذا جرى؟

والذي استغرق منا عدداً من الأيام كي نكتشفه هو أن الفقير كان يحشوه بالكوكايين، وأن ك... كان يلازمه، في أعقابه، من الصباح الى المساء ومن المساء الى الصباح.

أي ملح، أي طعم بقي بعد لمناقشاتنا الفلسفية المسكينة أو لمناداتنا الله الآب الذي لم يكن يتنازل بأن يظهر نفسه لنا؟.. كان عندنا ك... وكان عندنا الفقير، وأشعرنا ذلك بدرجة

من الفخر بحيث أننا دعونا طلاب الجامعة ذات يوم لحضور التجارب.

وكان ذلك في سهرة عيد الميلاد. والمؤونة من السوائل، بحكم واقع المناسبة، متوفرة بأكثر من المعتاد، كما أن الطلاب أحضروا من جانبهم نصيباً منها. وفي قاعة قادرة على أن تستوعب عشرين شخصاً بلغ عددنا ربما، الخمسين، وسرعان ما لعبت الخمر برؤوسهم، منهم من توعك ومرض ومنهم من انصرف للالقاء بلهجة خطابية، هذا يصيح وذاك يئن، والجميع يتكأكؤون مرتطماً بعضهم ببعض حول أحد أصدقائنا الذي ارتدى، غنجاً منه، حلة رسمية للسهرة، شكّل صدرها الأبيض رقعة استفزازية.

- الفنون تستقبل اليوم العلوم.

والقبل المبللة بعدها، والزجاجات التي تكسر أعناقها على حرف المنضدة، وأصوات تتعالى متسائلة:

- أين يبول المرء هنا؟

- في أي مكان يا صاحبي. إليك،... في هذه الجمجمة إذا شئت... أو على الجدار.

وكانوا يفعلونها، بينما انصرف الفقير، مرة أخرى، لاختبار سلطانه على ك...، الذي خضع سريعاً لحالة المنوّم.

ولا أعرف أية رؤى جاءته تلك الليلة وما الكلمات التي نطق بها بصوته «غير المتجسد»، الذي يتخذه إذ ذاك. فقد كان الجمع مزدحماً. وأحد يمسك بك من كتفيك ليقسم لك بأنها أجمل ليلة في عمره، وآخر يتوسل إليك لتعطيه كأس ماء. وتسمع كلاماً يدور عن دانتيه وشوبنهاور، ثم دائماً: أفلاطون

ورامبراندت، بينما الطلاب، تأخروا عملياً وتأخروا، لايكفون عن استعادة أغنية: رهبان القديس بيرناردان، يرجّعونها بشكل جماعي.

ولعلني أود الآن لو أقول: إن دانس كان هناك. ولكنه لم يكن. لم يكن حاضراً إلا نحن، أصدقاء ك... والفقير، والطلاب الذين يشكلون الظهور في الصورة.

وفي مدينة لييج، يقضي التقليد في ليلة الميلاد بمشاهدة مسرح العرائس الذي يقام في زقاق من الضاحية الأكثر كثافة سكانية. وأخذنا على دفعات ندخل الى مكان ضيق حيث يوجدالمسرح، تتسحق فيه أجسادنا على أجساد آخرين من ندامى الليل، ببينما يروي محرك الدمى بصوت مترع بالسكر سيرة الميلاد على طريقته هو.

ثم مضينا يبحث بعضنا عن بعض في الأزقة، نتعثر على حروف الأرصفة، أو يقع الواحد على طوله منطرحاً في بركة تجمع فيها الماء.

- من الذي سيحمله؟... إنه مريض فعلاً.

كان ك... متمدداً على الأرض، متيبس الجسم، كما وقع لي ليلة سكرتي الثقيلة الأولى. ورفعوه على منكبي، كان قد فقد أحد حذائيه، جرابه مبلل، وقدماه قذرتان، وكان جسمه مفرطاً في خفته، وظل أحدهم ورائي، يسند له رأسه.

- أين يسكن؟

وإذا بنا نفطن الى أنه ما من واحد بيننَا كان يعرف أين يقيم ك... كان صديقنا. يقضي كل وقته معنا. ولكننا نجهل حياته الرسمية على مستوى السجل المدني.

- أبوه يقطن في الضاحية، إنما لا بد أن تكون له غرفة في مكان ما هنا ينام فيها.

وأعطى أحدهم عنواناً لم يكن العنوان الصائب، وكل ما هنالك أننا أيقظنا أولئك الناس الطيبين الذين كانوا ينعمون بنومهم. ثم ذهبنا الى مكان آخر، وك... طوال ذلك على كتفي، تحت المطر، مع نفثات باقية من أغنية وخمر.

- أعتقد أن المكان هنا.

كان ذلك بالجوار. لكن عبثاً بحثنا في جيوب ك... لنجد فيها المفتاح. فهي لم تكن تحوي الا محرمة قذرة، وبقايا قلمين، وبضع قطع من النقود من الفئة الصغيرة.

واستقبلتنا في أعلى الدرج امرأة بدينة مرتدية جلباباً:

- لا داع لتكبد مشقة العودة به.

- لماذا؟

- لأنني مع ذلك ما عدت أريده هنا. وقبل هذا وذاك كيف حدث أنه ظل طوال ثمانية أيام من دون أن يعود الى هنا؟

وهل كنت أدري؟ لا بدّ أنه كان يقضي لياليه عند الفقير.

- ويمدا ضعوه مع ذلك في غرفته. لكن ليس على السرير: لأنه سيوسخ كل شيء.

لم يكن في الغرفة كهرباء، فأشعلت سراجاً ورأيت على منصب خشبي للرسم لوحة غريبة، وضعت خطوطها الأولى، سماء مكفهرة، وسهم برج كنيسة، وساحة مقفرة.

- ألا تعتقد أن الأفضل هو أن نستدعي طبيباً؟

- إنه نائم. بل ها قد أخذ يشخر.

ولم أكن أعرف أين اختفى الفقير. ولم نعثر في هذا أو

ذاك من الأمكنة الا على بعض من بقايا عصبتنا ولم يبق هناك أي شيء يشرب. ومضينا نهيم في الطرقات، عن مبدأ، مجربين أحياناً لازمة أغنية لانشعر برغبة فعلية في غنائها.

إن العديد من رفاقنا تلك الليلة قدر لهم أن يصبحوا أطباء أو محامين أو في منصب قضائي.

أما فيما يتعلق بي، فقد وجدت في اليوم التالي لدى وصولي الى الجريدة، فيما بين تقارير الشرطة، التي تبلغ إلينا كل صباح:

«عند الفجر، تم اكتشاف جثة شخص يدعى ك...، ٢٢ عاماً، من دون مهنة، وقد شنق نفسه عند بوابة كنيسة سان -فوليان...».

وبعد قليل، كان علي أن ألتقي دوبلوويه في مركز الشرطة، الذي كان مثلي يحرر المحليات قليلة الأهمية.

وقال لي يومها وهو يهز كتفيه:

- جميعكم بلهاء. وسترون أنكم في يوم أو آخر ستواجهون متاعب.

في أية ساعة استيقظ ك...؟ وترى ماذا يمكن أن كانته أفكاره وهو في الحالة التي كان فيها؟ كان تنقصه فردة حذاء، جورباه مبللان، ولعله قد انقضت عدة أسابيع عليه من دون أن يغتسل.

وما من أحد سمعه، حتى صاحبة البيت التي يقيم عندها، وهو يخرج كالجرذ، وكذلك لم يلمحه في الطرقات أي كان، والوقت لم يطلع الضوء فيه بعد.

ولم تكن الكنيسة على مسافة تزيد على مائة متر من

«الكاك». ولابد أن الفقير كان نائماً في فندقه المزدحم بأشكال ونماذج السيرك...

ومن أوائل الأشخاص الذين عدت فرأيتهم شارلوت، التي كنا نلتقيها في المساء خاصة ويمكننا اصطحابها عندئذ الى «الكاك»، الذي كانت، توقعاً منها لطلب مثل هذه الخدمات منها، تحمل معها مفتاحاً له:

ـ أصحيح ما يروى عن ك...

ـ صحيح.

ـ يا له شخص مسكين!

وحاولت أن أعرف إن كان هو أيضاً لجأ الى خدمات شارلوت الحميدة، ولكنها هزت رأسها:

ـ أبداً! واعتقد أنه لم يلمس قط واحدة أخرى كذلك. لم يكن يهتم بهذه الأمور.

ياإلهي، فعلاً! إنه قدم إلينا، هو، من مكان أبعد منا كلنا، من كوخ في ضاحية زرية، حيث كان رجل سكير يضرب أمه كل يوم، مكان رحلت تلك المرأة عنه ذات صباح، نصف ميتة، الى المستشفى، فالمقبرة.

فمن الذي أوحى اليه بفكرة التصوير؟ وبأية اعجوبة التقانا؟

ولماذا آمن، بكل قواه، وبكل ما فيه من هوج ومن سعار؟ ومالذي آمن به؟ لا أدري شيئاً عن الأمر. آمن بكل ما كنا نقول ـ ولكم كنا نقول أشياء! آمن بقصصنا عن العبقريات والشياطين، أفلاطون وفرلين، والله الآب والتنويم المغناطيسي...

فيما يخصنا، مسؤوليتنا، أليس كذلك؟ أرافع على أساس أننا غير مذنبين، أو بالأحرى أقيم مرافعتي على أساس عدم التعمد، والجهل. لم نكن نعرف! فذلك كان يمكن أن يقع لنا نحن أيضاً، مثلما حدث لدانس، الذي كان، في تلك الفترة، رجلاً،أو دوبلوويه، الذي يفوقنا خبرة.

ولكن هنالك واحد، لم تخطئ نظرته ما رأته، رجل دخل ذات ليلة الى الـ«كاك»، يلفه غموض السر في عباءته ذات الياقة الفرو، والذي تفرس بنا الواحد بعد الآخر بعينين قادرتين على كشف وزننا المعنوي.

وفهم هو، من النظرة الأولى، أن ك... هو من كان عليه اختياره. وكان يعرف، بحكم التجربة، الوسائل الكفيلة بتفكيك مفاصل فتى مسكين سيء الصحة.

ولم ينس شيئاً، لا الأم التي وجب استحضار صورتها، ولا الكوكايين الذي هو في هذا الصدد أقوى بتّاً من الكحول وحتى من الأثير الذي كنا نتعاطاه.

وهو قد استقدم ك...، في مرتين أو ثلاث، الى حانة الحمار الأحمر، وأوقع الأمر تأثيراً قوياً في الجمهور. ولعل الفتى، لو أنه كان أصلب بنية، لأمكنه ربما أن يقدم لمدة بضعة أشهر عرضاً طيباً مما يقدم في المنوعات أو الحانات.

وقد رأيناه مجدداً فيما بعد، الفقير، يمضي بمحاذاة الجدران، وما إن يلمح من بعيد واحداً منا، حتى يدور حول نفسه نصف دورة.

وفي الـ«كاك» بعد بضعة أيام من الحادثة، نهض أحدهم فجأة، وعيناه خارج محجريهما:

ـ من الذي جلب معه أثيراً الى هنا؟... ليقل ذلك والا فسيفصل...

لأنه فوراً، من حينها، بدا الاثير لنا بمثابة جريمة، وأحد المساكين الذي كان قد علق جدياً به، تم فصله ولفظ من: «عداد البشر الذين يمكن أن يتوجه المرء بالكلام اليهم».

وفي نفس الوقت تقريباً، فإن أحد الرسامين، في التاسعة عشرة من العمر، وكان قد التقى في الحمار الأحمر «مطرية» تبلغ الخمسين، اعترف لنا وهو ينتحب:

ـ أنت لا تفهم ما القضية يا صاحبي. لا يمكنك أن تعرف ما القضية!... أنا كنت نائماً... وهاك، فعندما استيقظت وجدتها جالسة بجانب النافذة ترفو جواربي...

هل تتخيل الأمر اذا ما، بعد ذلك، كان الذي بيننا لمدى الحياة؟... ترفو جواربي!... هي!... امرأة.

وحق أن الفتى المسكين لم يكن، اذا ماجاز القول، قد عرف أمه.

وآخر، لم يكن ترفّع عن عناقات شارلوت حائلة الطعم، بادرنا ذات امسية بمحاضرة طويلة حول النحت اليوناني.

ـ هل حدث أن رأيتم قط تمثالاً لفيدياس ترك فيدياس عليه شعراً يستثير السخرية؟ لا، أليس كذلك؟ إذن لماذا لا نزيل شعور أجسامنا نحن أيضاً باسم الجمال؟

ـ وهل فعلت ذلك أنت؟

ـ قبل قليل في الحمام.

لكن قبل بضع ساعات، اعترف لنا وقد أخذ السكر به:

ـ أنا كاذب، كاذب «زري»! ليس بسبب التماثيل اليونانية... وإنما بسبب تلك القذرة شارلوت التي نقلت الينا جميعاً...

واذا ما كنت اروي هذا، فلكي لا ينسى أحد أننا كنا ما بين السابعة عشرة والرابعة والعشرين من اعمارنا.

دانس، وقد حجز نفسه في الجزء الخلفي من مكتبته، انصرف هو أيضاً الى السحر، لكن بطريقة «مغايرة».

ودوبلوويه، الواثق دائماً بنفسه، جاء لعندي ذات صباح وأنا أحلق ذقني، علماً بأن ذقني لم تكن في حاجة كبيرة لذلك. ولم يكن قدومه بقصد أن يكلمني عن ك...، ولا عن الفقير، ولا عن رامبراندت أو افلاطون. وقال:

ـ ارتد ملابسك بسرعة وتعال معي. نستطيع اليوم أن نحظى كل بثروته.

وأمي، رغم أنها لم تسمع شيئاً مما قال، فإن ذلك لم يوفر لها اطمئناناً أكبر لتلك الزيارة العاصفة.

- ٤ -

قبل بضعة اسابيع، وبعيداً عن مدينة ليج وشبابنا فيها، وصلت رسالة مغفلة الى شرطة مدينة نانت تتضمن اخطاراً بأن اموراً تجري في احد الاقبية. ولم تورد الصحف الا بضع كلمات عن ذلك، ويخيل إليّ أن الناس اكتفوا بأن هزوا اكتافهم وهم يعلقون بأنها مجرد شقاوة اولاد. أما عن نفسي، فما من تفصيل واحد الا والتقطته بتلهف.

أولاً، اسم الزقاق، زقاق: الحفرة، الذي ذكرني بدارنا للعجائب خلف كنيسة سان - فوليان.

ثم هذا المشهد، الذي كان له ان اصاب الشرطة بدهشة بالغة جداً، والذي لم يكن من شأنه أن يثير أية دهشة لدي: ففي اللحظة التي اقتحم المحققون القبو فيها، وقع بصرهم على ثلاثة شبان، وأقفين، يرتدون اقنعة تغطي رؤوسهم ووجوههم، وتضيئهم شموع كنيسة وشمعدان بسبعة فروع مزودة بالشموع.

هكذا اذن، وبعدنا بعشرين عاماً، ما يزال هنالك مراهقون يتهلون النشوة بإقامة طقوس للاسرار، حتى لو كان ذلك سراً فجاً في تكلفه، تم اصطناعه بوسائل الاضاءة والتتكر.

هل كانوا يتناظرون هم أيضاً في دانته وشوبنهاور، وفيشنو والمسيح، الذي كنا ندعوه من دون تكلف: «مسيح»؟

ومثلنا على أية حال، فهم بدؤوا بأن استندوا الى الجدار نوعاً من اريكة. ومثلنا أيضاً أحسوا حاجة لأن يبثوا لذعة مذاق جنسي في الديكور، كما أن جمجمة لميت كان وجودها يضفي ذلك البعد المأتمي إياه.

«في هذا اليوم، نحن الموقعين ادناه، المنحدرين من آدم وحواء، قد أسسنا، بعد تذليل عدد من الصعاب «عصبة مغفلي الاسم».

ومع ذلك، يبقى هنالك فرق عما كنا: فالمنتسبون الى العصبة سيقع عليهم أن يكونوا ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من العمر، فهم إذن يصغروننا بثلاث أو اربع سنوات.

ما الذي سيفعلونه؟ هل سيغنون في قبوهم أغنية «رهبان القديس - بيرنار»، أم سيطلبون الى واحد من الفقراءتنويمهم مغناطيسياً؟

إنهم كما كنا معظمنا يومها طلاب في مدرسة للفنون الجميلة. وأنا انتظر بفارغ الصبر معرفة ما عملوه في الواقع وما يحلمون به.

وينقل اليّ علم بالأمر. واذا هم قد استوحوا كراسة بعنوان: «الأقدام عند أفراد العصابات المطلية بالنيكل»، وأخذوا بممارسة الغزو والنهب في المدينة منذ عدة أشهر،

مفرغين بقضبان الدبق صناديق الهبات المالية في الكنائس، ومختطفين كل ما تطاله أيديهم من معروضات المتاجر.

أكرر، لايكاد يكون انقضى ثلاثة أشهر على الأمر. وطبعاً، فالاشخاص الكبار لم يفهموا. وانتهى كل ذلك بتعنيف يزيد أو ينقص في شدته.

سوى أنه، وقبل ثلاثة أيام فقط، وبعد أن تناول ثلاثة من أعضاء «عصبة مغفلي الاسم» المنشطات، قاموا باقتحام متجر لبيع المجوهرات وهاجموا التاجر وزوجته، ولم يكن ذلك الذي أوحى بالجريمة أحداً غير ابن بائعي المجوهرات.

ولكن نحن في «الكاك» ألم نقتل أيضاً ك... الصغير؟

وأعرف، في الصباح الذي جاء دويلوويه فيه يتعاطى معي بشأن ثرائنا المقبل، أنه كان الربيع، والشمس جديدة تماماً. أعرف ذلك بقدر معرفتي اليقينية بأنها كانت تمطر ليلة عيد الميلاد. أعرف ذلك لأنني صباحها كنت أحلق ذقني واخترت ربطة عنق زاهية اللون.

وأمر هذه التفاصيل الخاصة بالهندام، أنه كان لها في تلك الفترة أهمية جوهرية. فبنفس المعيار، والذي من بيننا كان الأكبر والأقوى نفوذاً على الآخرين، كان طوال اسابيع يضع على رأسه قبعة ذات طراز اسباني عريضة الحواف يتفاوت مقدار ما عليها من قذارة دسمة، وربطة حول العنق عريضة العقدة، فوق قميص حال لونه وما عاد يعرف ما كان عليه أصل اللون.

إذن مرحلة صوفية! وفي ذلك الزمن، ما كان واحدنا يكاد يغتسل قط. اللحى متروكة لنمائها، والشعر يصير الى التشعث، يتمتع الشخص بقذارته ويلقي بجهورية منبرية مقاطع من

القديس فرانسوا الاسيزي، أو هو يتوجه الى: «القمر، يا شقيقتي، والى الحصان، أخي»، واذا ما طالت لحانا بقدر كاف، فما كنا لنأنف عن ايواء طفيليات فيها، على غرار القديس العظيم، بقصد أن نحيا الصميمية الأكمل مع مخلوقات الله.

وكانت تلك أيضاً أزمنة الشراب والتوهج، والدوار يستولي على مشاعر الوجدان.

ثم فجأة، وذات صباح، ولمجردأن شعاع شمس نفذ بخط مائل الى الغرفة يدغدغنا ونحن في السرير، ولأن الجو كان يحمل رائحة الربيع، كان الواحد منا يشعر بالحاجة تتتابه لأن ينظف نفسه.

وانصرف دوبلوويه ذلك الصباح يتابعني بنظره وأنا أفعل، ففي الليلة الفائتة ما كنت حتى لأصغي له، ذلك أنني في الليلة الفائتة كنت منغمساً في نظم أبيات حول الوحدة:

«أسى برج جرس الكنيسة المرتفع...».

... برج جرس الكنيسة في انفراده المتوحد والذي يحسد البيوت التي يضم بعضها بعضاً عند قدميه...

في حين أن دوبلوويه جاء يحدثني في اعمال، واصغيت أنا إليه، لأنني كنت لتوي قد حلقت ذقني، وقلمت أظافري، وأنا بالسروال الداخلي، أنتظر كيّ بنطالي لإعادة الثنية إليه التي كان قد فقدها قبل زمن طويل.

- أتفهم الأمر؟ سنراه معاً، يقدم هو رأس المال. ونحرر نحن الاثنان الجريدة.

يا لله، في مثل تلك الأصباح، كنت أنكر دانتيه، وشوبنهاور، وحتى رامبراندت وشيكسبير، أتنكر لـ «كاك» ولكل فقراء

ـحرق مجتمعين. كنت في حاجة لأن أكون نظيفاً ونقياً بقدر
اقـة ونقاء السمـاء الخاليـة من أية غيـمة، ومضيت أمشي
طـوة أكثـر مـرونة وأنا أنظر إلى نفسـي برضا في واجهات
بض المتاجر.

حـدث الأمـر نفسه بالنسبـة لكل أصـدقائنا! وعندمـا كان
ـري أثناء «نوبة النظافة» تلك أن نلتقي واحداً، لم تهتز الأوتار
يه يعد متناغمة مع المرنانة ذاتها، فيتحدث عن كنيسة سان ـ
ليـان، كنا ننظر إليه ببعض الحرج:

- ... نعم، نعم... في مساء ما...

وعندئذ وخـلال بضـعـة أيام، كـان يذهب واحـد أو اثنان
ـن لم يجاروا الموجة الى المنتدى ذي الجماجم والشموع.

للوهلة الأولى، يبدو الطباق في هذه الثنائية طريفاً، بل ما
ال للآن أيضـاً ابتسم للأمـر، ولكن حـالمـا أمعن التفكير فيه،
بيـن لي أن ما نحمله فينا هو كل المـأساة، والحكاية الخـالدة
ـكتـور جيكل والمستر هايد...

وهكذا، فإن ك... الصغيـر قد مـات، لأنه لم يتـوفـر الوقت
كـي يغتسل.

وهكذا، فالبعض منا لم يتوفر الوقت لهم قط، ولذلك ظلوا
مـرهـم في طور الذقون الكثة والسكر خطابي النفس.

وآخـرون تابعـوا، تتناوب الحـالتـان لديهم... مـثل دوبلوويه
ذي أقدم على القتل في يوم كان يرتدي فيه معطفاً عتيقاً من
فـسيــردين دفع عـشـرين فـرنكاً ثمناً له في سـوق المــلابس
مـسـتـعملة، والذي انقضت عدة اسابيع لم يكن قد حلق ذقنه
بها.

ومثل هياسنت دانس الذي كان في الآونة الأخيرة منصرفاً لأعمال السحر، وجسمه البدين الذي أهمل العناية به ملتف في رداء زنخ خاص بغرفة النوم.

الأزقة والشوارع نفسها بدت في أتم هندام، ونفذنا أنا ودوبلوويه الى حي متسع الأبعاد، بيوته مؤلفة من طبقة أرضية، أو من طبقة أرضيةوطابق أول، ولها نوافذ مزودة بنباتات خضراء وبستائر مطرزة.

وهنا وهناك، امرأة تغسل قطعة رصيفها بفيض من الماء، و رغي الصابون بالفرشاة على عتبة البيت وأحجار واجهة مدخله. وكان شرطي بلدية ينتقل من باب لباب بقصد أن يذكّر الذين لم يفعلوا ذلك بعد بأن عليهم أن يقتلعوا الأعشاب التي نبتت بين بلاط الطريق. فإنني طوال طفولتي، انتزعت كذلك الأعشاب من جزء الطريق المواجه لبيتنا، وما ازال اتذكر رنين السكين على الاحجار.

لا شيء أكثر هدوءاً وترتيباً من هذا الحي، ببائعيه الذين يمضون من باب لباب دافعين أمامهم: البعض عربة خضار والبعض عربة فحم، بينما بائع الحليب يعلن عن نفسه بواسطة بوق، وبائعة الاجاص المطهو تطلق نداءها التقليدي.

وأتصور أننا طوال اسابيع كنا نحجز أنفسنا في مقرنا إياه: «الكاك»، ويفوتنا ونحن مستغرقون في خيالاتنا المتفاخرة أن نرى أي شيء من كل ذلك: براعم الزهر وهي تتفجر في اشجار الساحة، والفتيات الجميلات بمآزرهن زاهية الألوان، يهرعن في الشباشب حمراء أو زرقاء لعند اللحام وهن يمسكن بعقيصة شعورهن...

وقرع دوبلوويه على باب منزل مريح بشكل خاص أعرفه جيداً، إذ كانت له سمعة تختلف عن التي لغيره.

وكان البيت تديره شقيقتان، على قدر من جمال كلتاهما وبخاصة احداهما، إذ كان لها شعر بني غزير، ولحم أبيض ناعم، تظل تصل النظرة إليه وهي مرتدية مشملها على الدوام منفرجاً عن صدر بض.

وكانت أمي تقول:

- إنه بيت «سيء السمعة».

سيء السمعة، لأنه كان يجري فيه ايجار غرف مفروشة لطلاب أغنياء. وكان كل الحي، طبعاً، يقوم بتأجير الغرف للطلاب، إلا أنه كانت هنالك فئتان من البيوت: تلك التي لا يمكن فيها للمستأجرين أن يستقبلوا نساء، وتلك التي يتمتعون فيها، كما هو التعبير، بـ «دخول حر».

والأمر أنه حيث قرعنا، كان المدخل حراً، حراً جداً، يشاهد الضوء في نوافذه حتى ساعة متأخرة من الليل، بينما تتسرب فيه الموسيقى من تحت الأبواب

وأدخلنا الى شقة واسعة، تشيع فيها رائحة ماء الكولونيا، ومنذ النظرة الأولى، أدركت أنني أثبت قدمي في عالم جديد.

أولها هذه المرأة بالمشمل الحرير التي تقود حركتنا، والتي في كل خطوة تخطوها، تدع ساقيها ينكشفان بقدر لا بأس به لأعلى مما يستره الجوربان.

كانت معطرة، وشفتاها، عندما تدخن، تخلفان علامة على السيكارة لها شكل نصف قمر أحمر.

- اجلسا... سأعلمه بأنكما هنا.

وليس أحد التفاصيل بقدر ما هو المناخ نفسه كان يثيرني. فالغرفة مثلاً لم تكن مفروشة وفقاً للتقليد السائد في بيتنا أو في منازل أصدقائي. كانت قطع الاثاث مغطاة بطلاء صيني زاهي اللون، وقد تربع على السرير غير المرتب لحاف بلون الزهر هو من خفة اللون بحيث يطير. والى جانب، صحفة فوق طاولة صغيرة مستديرة السطح وبقائمة واحدة، ما تزال تحمل بقايا الافطار.

وصدر صوت شخص من غرفة الحمام منفرجة الباب، صوت رجل يقول بلكنة شرق اوروبية قوية:

ـ أهو أنت يا سيد دوبلوويه؟... دقيقة... خذ سكائر من على الطاولة...

كانت تسمع أصوات ماء. وتابع الرجل:

ـ احضري لي ردائي لغرفة النوم يا لولا.

وبكل طبيعية، دخلت المرأة الى غرفة الحمام وكنت أراها، وهي مديرة ظهرها، تنظر باتجاه مغطس الماء حيث كان الرجل عارياً

دوبلوويه، هو، وجه لي غمزة بعينه، وأخذ سكائر من على الطاولة، سكائر من النوع الأفخر لم أكن حتى أعرف ما اسم نوعها.

ـ هأنذا... أرجو أن تعذراني، ولكنني تأخرت جداً في النوم...

أنا، وجدته رائعاً، رائع في يسر تصرفه وبساطته! كان ما يزال مبلل الجسم، يتجعد شعره تجعداً دقيقاً. وتقدم نحونا، من دون حشمة أو قلة حشمة، وهو يجفف صدره ذا الشعر، تحت ردائه لغرفة النوم المزين بزهور مطبوعة عليه.

- تشرفت.. اجلسا... لولا! قدمي لنا شيئاً نشربه.

كان رومانياً، في الخامسة والثلاثين أو الاربعين؛ فتى بهي الاطلالة والحضور، على شيء من بدانة وبعض الدسم، يلثغ، وبالنسبة لمعاييري، كان ذا أبهة فاخرة. وفي الفوضى الصباحية لغرفة نومه، في نصف عريه، والتخفف من الملابس لدى المرأة التي تخدمه، لاح لي محققاً لأكثر أحلامي بيزنطية ويجسد في عيني نموذج السيد العظيم بذاته.

وخطر لي أن كلمة ناباب، التي تعني بالاصل الأمراء الهنود لدى السلاطين، والرجل فائق الثراء تشيع معالم الغنى فيما حوله، إنما تلائمه تماماً... في اصبعه خاتم ضخم، بماسة صفراء.

- هل تسمحان؟

كان هنالك خمس عشرة رسالة تقريباً، ألقى عليها بإهمال نظرة عابرة، وهو يشعل بذات الوقت سيكارته الأولى بولاعة ذهبية.

- لا شيء جدير بالاهتمام. ماذا ستشربان؟.. كأس شمبانيا؟... قدح فيرموت؟...

ولم يكن متباهياً بقصد الخداع. إذ كانت زجاجة شامبانيا تنتظر في سطل للثلج، وأوضح رومانينا الأمر:

- في الصباح. احتاج لذلك لأغسل به فمي. وبعد يا سيد دوبلوويه؟...

وكنت أتخيل أن الحياة في البالاس، الذي يفوق مرتبة فندق الخمس نجوم، لا بدّ وأنها تجري على هذا المنوال، استسلام ملذ للحواس، وفوضى أنيقة، كنت أشعر بالاعجاب

بكل شيء وبثقة كاملة، بما في ذلك بنعلي مضيفنا الحمراوين المصنوعين من جلد الجدي.

كان دويلوويه يقول خلال ذلك:

ـ أنا وصديقي جاهزان لتولي ادارة الجريدة كما تقترح.

لم أكن انهيت تماماً السابعة عشرة والنصف من عمري، وفي مراحل أناقتي وعدائي للصوفية تلك، أخذت أرتدي ياقة صلبة مكسورة الحافتين وسواري كمين من السيللولوييد، وإضافة لذلك جزمت بأنه لا غنى عن أن أزين حذائي الملمعين بقماطين لونهما رمادي ـ فأري.

كل شيء أو لا شيء، هكذا كان الأمر

فقبل بضعة أسابيع كنت حلقت شعر رأسي على الصفر لأفلت بيقين أقوى من شيطان التبرج. والآن، وبفضل استعمالي لزيوت التجميل بإفراط توصلت بهذا القدر أو ذاك من النجاح لعمل خط فصل في شعري بالغ القصر يفرقه الى الجهتين. وبينما أنا منصرف للاصغاء الى رجلنا الروماني، فإنني كنت أعاهد نفسي بذات الوقت على أن أتعطر مثله بماء كولونيا روسي وأن أشرع ذات يوم في إصبعي ماسة صفراء في خاتم من البلاتين.

ـ هل وجدتما اسماً للجريدة؟

ومفهوم أن ذلك كان يتعلق بجريدة هجائية سنجلد فيها أهالي لييج بالطريقة الأظرف. كنت كاتباً ساخراً، ولم يكن في الأمر أدنى شك، وذلك منذ أن عهدوا إليّ في الجريدة بكتابة زاوية يومية فيها. ما من شيء يستثير السخرية كان يفلت مني، فيما عدا ياقتي مكسورة الحافتين، وربطة عنقي على الصدارة

المنشاة والقماطين الرماديين.

واقترحت بخجل:

- السوط.

- واعترض دوبلوييه الذي كان يملك بكل الأحوال تجربة تفوق قليلاً ما عندي:

- سبق أن فعل بعضهم ذلك.

- إذن: الكرباج.

تركية الأصل، راقت الكلمة للروماني الذي كان رجلاً من الصنف المحبذ للتنزه في الشوارع وهو على صهوة جواد.

تقدم دوبلوويه بنصيحة:

- يفضل أن تكون الكلمة محلية.

- الليجيا؟ المدينة المتقدة؟ الليبجي الباسل؟

وبانتظار أن يقر قرارنا، أخذنا نترع الشامبانيا، ولولا، التي كانت تصغي الينا وهي جالسة على حافة السرير، قد صالبت ساقيها، الأمر الذي كان يكشف فوق حمالة الجورب قدراً من بشرتها يبلغ عشرة سنتيمترات.

وتصور أن الروماني كان يعيش وسط مشاهد مماثلة تحت بصره طوال اليوم:

- ولماذا لا يكون: نانيسّ.

والاسم هو لشخصية خرافية من تاريخ مدينة ليبج، ويعني امرأة سفيهة في كلامها وتصرفها، درجت العادة على تمثيلها في صورة امرأة ممسكة بالعصا الطويلة لمكنسة الانتقام.

وحالما تم اختيار الاسم، أخذ دوبلوويه باخراج وثائق عديدة من حقيبته، ومضى يذكر الارقام، وزن وثمن الورق،

وكلفة التأليف، والمسودات، والمرتجعات، بينما كان ممولنا يستمع منصرف الذهن وهو يقلم أظافره.

- كم؟

- ينبغي أن نضمن على الأقل أربعة اعداد...

- كم؟

- اذا أخذنا في اعتبارنا طبع عشرة آلاف نسخة، الذي طبعاً سيتم تجاوزه...

- لولا! ناوليني دفتر شيكاتي.

أول شيك أراه يوقع أمامي! كما لو كان هذا الرجل يصنع ورقة نقد.

- هي ذي عشرون ألف فرنك... ستأتي فيما بعد لأراك...

وقبض دوبلوويه من دون أية خلجة، يكاد يوحي بأنه قضى عمره وهو يفعل ذلك.

- أنتما حران طبعاً في كتابة ما تشاءان. إنما أفضل عدم التطرق الى السياسة.

وردّ دوبلوويه:

- لا سياسة.

وأنا أقسمت:

- لا سياسة.

- أما فيما يتعلق باسمي فيجب ألا يظهر أيا كان الظرف. أنتما مديران، وهذا كاف. وأنا، إنما أفعل ذلك على سبيل التسلية، واذا ما عُرف أنني أشغل نفسي بجريدة، فإن الحكومة الرومانية قد يمكن أن تندهش...

وأكثر الأمور عجباً، هو أنني لم أكن قد سألت نفسي بعد،

لماذا هذا الرجل، الذي كان على ما يبدو أحد أكبر المحامين في بلده، يعيش في شقة مفروشة في ليبج، ولماذا، فجأة تماماً، أعطانا عشرين ألف فرنك بغية تأسيس جريدة هجائية.

كان راعياً محسناً، هذا كل الأمر! وهو رجل قادر على أن يقدم لك شمبانيا «شريط أحمر» في الساعة الحادية عشرة نهاراً، وهو خارج من حمامه، وأن يوقع شيكاً لك من دون أن يعيد قراءته.

- بالمناسبة... قد يمكن، من وقت لآخر، أن أكتب مقالاً صغيراً، أنا نفسي...

- هذا أكثر من طبيعي! بقدر ما تشاء...

- سيكون ذلك نادراً بقدر كاف... ومع ذلك فعندي موضوعان ثلاثة في ذهني... ولن أوقعها على أية حال.

- كما تشاء.

لم يعد في طاقتي أن أثبت في مكاني. وما عدت أحلم إلا بأمرين: قبض الشيك من المصرف، استئجار مكتب يصبح مقر تحرير نانيس.

- قد يقتضي أن تحتوي الجريدة على بعض الصور...

وأكد دوبلوويه:

- تم ترتيب ذلك. وقد ربطت عند أفضل رسام كاريكاتور في ليبج...

وعند خروجنا من غرفة ألف ليلة وليلة تلك، لم أكن ثملاً، إلا أن رأسي كان يدور بعض الشيء. وما كدنا نقطع خمس خطوات على الرصيف حتى أطلقت لحماستي العنان، في حين أن دوبلوويه الذي لم يترك لأي انفعال أن يظهر عليه، يداه في

الجيبين، والعصا في وضع مائل، وحقيبته تحت ابطه، همس لي:

- انتبه! لعله يراقبنا من النافذة...

فعلاً! ذلك بديهي. يجب الا نترك الاحساس لدى هذا الرجل بأنه كان المغفل المخدوع، وأنه، بوجه الاجمال، قد أتى على اهدائنا عشرين ألف فرنك مقابل لا شيء، لمجرد الاستمتاع بتأسيس جريدة انتقادية، وربما ليكتب من حين لآخر مقالاً فيها!...

وبعد أن انعطفنا مع مرفق الشارع، مثلاً، بات من حقي التواثب بقدر ما أهوى. واعترف دوبلوويه لي:

- كنت على وشك أن أطلب منه عشرة آلاف. بوسعنا الظهور خلال خمسة عشر يوماً. ابدأ أنت بكتابة ثلاثين نبذة للزوايا: حكايا، وطرف.

- حول أي موضوع؟

- حول أي شيء. لا أهمية لذلك.

كان الشيك ممهوناً، ولكنني لم أر قط أوراق النقد التي سلمونا إياها مقابله، فقد قرر دوبلوويه أنه هو من سيمسك الصندوق.

أما فيما يخصني، وبانتظار تحقيق أرباح، فسأقبض ثلاثين سنتيما في السطر، أي ضعف ما كانت تمنحني إياه الجريدة.

بقول آخر، وباعتبار أن هنالك أربع صفحات ينبغي ملؤها، كان في متناولي أن أشرع في صنع نقود! وجريت ذلك على الفور، دخلت أحد المقاهي، وطلبت ورقاً ونصف زجاجة

مشروب. وبعد ربع ساعة من ذلك، كنت قد كتبت مائة سطر من النبذ. أي ما قيمته: ثلاثون فرنكاً.

ثلاثون فرنكاً في ربع ساعة، أي: مائة وعشرون فرنكاً في الساعة، وأعلنت لأصدقائي بكل برود:

- إنني أكسب مائة وعشرين فرنكاً في الساعة.

وذلك من دون أخذ نصيبي من أرباح «نانيس» بالحسبان، عندما تتحقق أرباح. أيمكن بعد تصور أنه ما يزال هنالك شباب يغلقون على أنفسهم في المساء في «الكاك» ليناقشوا أفكاراً بلهاء على ضوء شمعة وهم يشربون الكحول السيء؟

أنا، في اليوم التالي، حملت إلى دوبلوويه نبذي الثلاثين، إضافة الى قصة قصيرة ساخرة، ونقدني هو فوراً، بحركة سيد عظيم، وبأبهة الذي ياقوتة خاتمه في اصبعه، كامل استحقاقاتي، إذ كان قسم من العشرين ألف فرنك ما يزال في حوزته.

كنت أسقط الكلمات بعدم اكتراث أمام زملائي العاملين في الصحافة في لييج:

- إن كان عندكم مقال ظريف مضحك، اعطوني اياه، فأنا أدفع ثلاثين سنتيماً للسطر.

واشتريت لنفسي قبعة طراز: مولون، مما يضعه الرجال الرصينون، ذات حواف مكوّرة فوق الرأس، ولم أكن ارتديت قط قبعة من ذلك الطراز، إنما اعتبرت أن ذلك ينسجم بشكل أفضل مع مقامي الجديد ومع قماطي حذائي. وجازفت، لكن على انفراد بيني وبين مرآتي فقط، بتجربة بللورة ساعة مستديرة وضعتها على عيني، على غرار نبلاء الألمان والانكليز. لا!...

كان ذلك كله كثيراً جداً، وبخاصة دفعة واحدة.

وذهبت الى مربع ليلي حقيقي، حيث لم أكن وضعت قدمي من قبل قط، مربع مفروش بأرائك مخمل بلون توت الأرض، وفرقة جاز موسيقية، وبار امريكي، ونساء جميلات يرتدين الحرير.

ما عادت القضية في أن أجري الى «الكاريه»، وراء فتيات معتلات الصحة، أو أن اصطحب شارلوت اللامبالية والمطواعة الى مكان وراء كنيسة القديس فوليان.

ووجدت نفسي محاطاً بالنساء، نساء حقيقيات، مثل لولا، وفي الساعة الثالثة صباحاً، أخذت غرفة في ذلك الفندق نفسه، الذي كنت أحدثت فضيحة فيه ابان أول مأدبة ساهرة حضرتها.

عندما ظهر أول عدد من «نانيس» صرحت لي أمي برأيها:

- يجب أن تخجل من نفسك لكتابتك في مثل هذه الحثالة القذرة.

أما هذا فكانت مغالية فيه. والكلام المكتوب والصور، صحيح أنها لم تكن تتميز بالاغراق في التزام الآيين المتواضع عليه في الصحافة، إذ طالما أنه أنه لا بد من تقديم الساخر بأي ثمن، فلا بأس إذن من فعلها على حساب أشخاص ومؤسسات لهم المنزلة المحترمة تماماً.

ومع ذلك، فلو أخذنا الكل بإجماليه، بعضه مع بعض، فالجريدة لم يكن فيها ما هو مؤذ فعلاً وشرير، لا شيء سوى أمر واحد أزعجني وأثار بلبلة فيّ، هو مقال صغير على الصفحة الرابعة لم أكن أنا كاتبه، ولم يكلمني دوبلوويه عنه،

وهو مقال أخذت فوق ذلك أستعيد قراءته المرة بعد المرة من دون أن انفذ الى معناه.

«أصـــحـــيح أن م.ت... وهو رجل مـــعـــروف جـــيـــداً في مدينتنا...»

من هذا الـ: م.ت؟ ... ولماذا جرى أيضاً إيراد تلميح الى أنه في يوم أو آخر قد يتعرض لمفاجأة غير سارة؟ ولماذا ورد الاستشهاد بمثل جار: ليس كل ما يلمع ذهباً.

قلت لدوبلوويه:

- لا أجد في هذا أي شيء يضحك! لا معنى له.

- أهذا رأيك؟

- نعم. فأنا نفسي لم أفهم المراد.

- قد يكون هنالك أشخاص فهموا...

- أهو أنت من كتب هذه النبذة؟..

- غبي!

إي نعم، ما كان أغباني، فذلك كان أول مقالات ممولنا! بل حتى بلغت بي السذاجة حدّ أن أغمغم:

- ولكنه لا يملك أية دراية بالكتابة الصحفية. لحسن الحظ أنه سيمر من دون أن يلحظه أحد. وثمة غيره مقطوعات أخرى بجانبه جيدة التحرير..

كتاباتي أنا، أقل منها!... أخبار وتعقيبات حقيقية، تفضح كيف أن الحافلة الكهربائية إنما تتوقف في المكان الفلاني في مقابلة المشرب لأن صاحبه مستشار بلدية، أو أيضاً أن القمامة المنزلية ينبغي رفعها قبل الساعة العاشرة صباحاً...

إنما من أين كان لي أن أعرف أن السبب الوحيد في وجود «نانيس»، كان بالضبط ذلك المقال الصغير الأبله المتعلق بـ: م.ت... وأن رجلنا الروماني لم يقطع كل اوروبا الا لكتابته؟

وهل كنت أملك أن أحزر بان دبلوويه قد صرح له قبلها بقوله :

ـ عندي صاحب صغير طيب، نقصف به رئيساً للتحرير وسيملأ لنا الصفحات الأربع بأجر بخس.

بل كنت أقل قدرة على أن أتصور أن دانس، وهو في مكتبته يمحص وريقتنا، قال يغمض جفنيه تقريباً هو يقرأ من خلالهما المقال المعني إياه... وأنه من وقتها اعتزم، وقد استشم أنفه ما سيحدث ، أن يعيد شراء «نانيس»، التي ستعود يوماً عليه بحكم غيابي بالسجن سنتين.

وكنت من جهتي أعيش وقد أسكرني الربيع والمجد، مرحلة ثملى من الأظافر النظيفة، وزيوت الشعر، والأقمطة ذات اللون الرمادي ـ الفأري عند القدمين.

ـ ٥ ـ

بعد ذلك بمدة طويلة، في باريس، قدر لي أن أعرف عدداً كبيراً من مدراء صحف هي على منوال «نانيس»، أهم مستوى بكثير طبعاً. والآن، عندما أقيم المقارنة بين «نانيس» وتلك، أجد نفسي مرغماً على الاعتراف لدوبلوويه بأنه كان ذا موهبة.

في تلك الفترة، لم أكن فعلاً أفقه شيئاً مما يجري، فخوراً بالثقة التي أظهرها المدير النظير نحوي رغم حداثة سني وقلة خبرتي.

ـ ما رأيك يا دوبلوويه، أعتقد أنه جاءتني فكرة مدهشة.

وهو، منصرف خلال ذلك الى التنقيب في اضابيره.

ـ برهاناً على التسيب الاداري، سأذهب الى دار المحافظة وأنا أجر عربة تدفع باليد، وسأرفع من هناك صندوقاً ضلعاه متر بمتر ونصف، وهو قطعاً ثقيل الوزن جداً ولابد، لأنه

يحتوي على دوريات مطبوعة. هذا الصندوق كان الواجب أن يودع في دار الكتب العامة منذ سنة، سأحمله أنا بنفسي زاعماً أنني من طرف المحافظ...

ـ طيب...

هذا المشروع، لقد نفذته بكل الاحوال، الأمر الذي لا أهمية له. إنما ما يؤخذ في الحسبان هو لا أبالية شريكي الكاملة بالنسبة لكل ما يتصل بالتحرير.

ـ هل قرأت القطع التي كتبت؟

ـ نعم... لا. خذها على أية حال الى المطبعة.

ـ ألا تعتقد أنني غاليت في قسوة اللهجة في مقالتي حول المسرح الملكي؟

لم يكن حتى على علم بأنني قد كتبت مقالة حول هذا الموضوع. أما هو، فإنه لم يكن يكتب سطراً واحداً. فقد ترك عليَّ أمر العناية بملء الصفحات الاربع. واذا اتفق أن شوهد عند منصة اخراج الجريدة، فذلك لكي يتحقق من حسن اختيار المكان بالنسبة لاعلان من الاعلانات.

في الحقيقة، وانتبه الى ذلك الآن، فإنه كان يملك قماش مدير حقيقي لجريدة من هذا النوع الخاص، وقد فهم أن مكانه لم يكن في المكتب الذي لا يأتي احد اليه. إنما في المقاهي والمطاعم، وربما في غرف انتظار الرجال الرسميين. بكل الأحوال، فإن مدراء من هذا الصنف، أقصد ممن لهم مشاكل مع الشرطة دورياً، إنما يعملون في باريس بنفس الطريقة بالضبط، ويكنون نفس الاحتقار للقصص التي لا رأس لها من ذنب والتي يجري تسويد الورق بها قبل دفعها الى القراء.

واذا لم تخني الذاكرة، فالعدد الثاني من «نانيس»، لم يحتو على أي مقال من ممولنا، الذي لم يراوده الفضول لأن يأتي ويلقي نظرة على مكاتب الجريدة.

وصرح دوبلوويه لي بكل هدوء بال:

- ينبغي أن يطلق أيضاً يده لنا بعشر أوراق نقد أخرى. فالصندوق في حالة املاق تام.

وذهب بمفرده لزيارة الروماني، لكنه عاد تبدو على سحنته علائم الانشغال بعض الشيء.

- سأحصل على الشيك يوم السبت... يجب أن يستقدم «العملة»من بخاريست...

ويوم السبت لم يظهر رجلنا للعين إلا بعد الظهر، عقب اغلاق المصارف أبوابها، وطلب إلى دوبلوويه أن يرجع في الاسبوع القادم.

هذه المرة، كان هنالك مقال صغير، عصيّ على الفهم بقدر ما كان الأول، ورد فيه تقريباً ما يلي: «نعتقد على ضوء ما بلغنا أن فضيحة لا سابق لمثلها ستتفجر قريباً في مدينة لييج، كاشفة للنور بفجاجة خاصة العادات الاجتماعية لبعض العائلات الكبيرة، التي تظن بأن ما تملكه من مال قادر على أن يضعها في مأمن من...».

ويوم الاثنين، كنت راغباً على أية حال في أن أقبض استحقاقي عن الألفي أو الثلاثة آلاف سطر من المقالات التي كتبت. وقال لي دوبلوويه:

- ذهبت لعنده. إنه مسافر في مدينة آنفير. ويعتقدون أنه سيعود الليلة أو في يوم غد...

يوم الثلاثاء، بائع الورق هو الذي جاء الى المكتب. وقد استقر فيه، متوعد الوجه، وأعلن أنه لن يبرح المكان إلا بعد أن يُدفع حسابه له.

وقال دوبلوويه له:

- أنا ذاهب أحضر المال. وأدعك مع معاوني...

كان المقصود أنا. وأخذت الساعات تنقضي. وبين الحين والحين كان الرجل يغمغم بعبارات فظة من نوع:

- اذا اعتقدتم أنني سأترك لمغامرين أن يوقعوا بي...

أو أيضاً:

- تأملون بالتخلص مني عن طريق إنهاكي بالانتظار... هيهات. لا تعتمدوا على ذلك. وسوف أتصل بالهاتف إذا اقتضى الأمر كي يحضروا لي سرير نوم طيّ للرحلات.

مع حلول الليل، مخابرة من دوبلوويه:

- أما زال عندك؟

- للأسف!

- هو وشأنه. فالروماني لم يرجع...

وسألني الدائن الفظ:

- ما الأمر؟

- حسناً. هاك إذن. تلقيت مخابرة بأنه لن يكون هنالك مال اليوم...

- وماذا لو حطمت وجهك الآن، كي أعلمك كيف هي الحياة؟...

- أولاً، لن يفيدك ذلك في شيء. ثم لن يكون من باب الرقي فهم مدينون لي أنا أيضاً بمال.

يوم الخميس فقط، صارحني دوبلوويه بأن الروماني لم يكن لا في آنفير، ولا في لييج، وإنما قد غادر بلجيكا نهائياً عائداً الى وطنه.

- ومع ذلك، قم بتهيئة العدد! يجب أن تظهر الصحيفة.

- لكن ما دام تاجر الورق، وصاحب المطبعة...

- لا تنشغل بذلك. جهز العدد.

نعم. كان دوبلوويه يملك القماش. والبرهان، أن نانيس ظلت تظهر وأن تاجر الورق استمر، طوال أسابيع يزودنا بالورق بالدين، بل حتى أعتقد أنه وظف بعض المال في المشروع.

حكاية الروماني، لم أعرفها بالكامل قط. وكل ما عرفته فيما بعد، هو أنه كان قبل ذلك بسنوات قد توصل لأن يتزوج، في سويسرا أو على شاطئ الريفييرا، وارثة احدى العائلات الكبيرة في لييج، التي لم تلبث أن اكتشفت أنه لم يكن الا مجرد رجل مغامر.

وجرى طلب الطلاق، وتم الحصول عليه. ولكن هذا لم يمنع الرجل من أن يعاود الكرّة، وقد وطن نفسه على أن يعيش من ذلك الحين على حساب العائلة إياها.

وذات ليلة، التقى دوبلوويه في احد المقاهي أمر لا يصدق عدد كل أولئك الناس الذين كان دوبلوويه يتعرف اليهم في المقاهي! وهكذا ولدت فكرة الصحيفة.

هل نجحت الضربة وهل كان رحيل الرجل الروماني يعني أن العائلة قد أذعنت بعدما أبدت مقاومة، لتتخلص منه؟ إن كان الأمر كذلك، فمن البديهي أن الرجل حصل على المقابل بالنسبة لفرنكاته العشرين ألف التي كان دفعها.

لكن قد تكون الشـرطة أيضاً هي التي أفهمته، بينها وبينه، بأن الهواء هو أكثر عافية لصحته بكثير على الجانب الآخر من الحدود.

لم أعـرف ذلك قط. وأفتـرض أن دوبلوويه حـصل على معلومات أكثر. ومرة أخرى، إنه كان مديراً حقيقياً، فهو لم ينبس لي ببنت شفة عن الموضوع.

يبقى أنني في الاسبوع الثالث دخلت الى مكتبنا، مرتبكاً، ومحمر الوجه، لأنني كنت عازماً على أن أكذب:

ـ اسـمع يا صـاحبي... حـدث شيء أوقـعني في حـرج شديد... فمدير جريدتي وضعني أمام خيار من اثنين: إما أن أعـمل عنده، وإمـا أن أكـتب في «نانيس»... يجب أن تفهمني...

حتى ولم يكد يرفع رأسه كي يلقي نحوي بلا مبالاة نظرة بها بعض أسى ضـجـر. وأنا، لم ألحق أندفع لأقـدم مـزيداً من الايضاحات إلا وقاطعني بغتة هازاً كتفيه ومغمغماً من دون أي غضب:

ـ أبله.

فـمـاذا يعنيـه الأمـر، هو، إذا ذهبت أنا أو بقـيت، مـا دام الشيء الوحيد الذي أقدر على عمله هو مجرد الكتابة لا أكثر. ألم يكن في المدينة خمسون شاباً مثلي، في حداثة الشباب، قادرين على أن يملؤوا له أعمدة الجريدة بالمقالات الساخرة بثلاثين سنتيماً للسطر الواحد.

والبـرهان على ذلك أن «نانيس» اسـتـمـرت في الصـدور، والذي حل محلي في دور تفقيس مقالات، عادية المستوى، لا

يهم، لم يكن يطلب أي قرش مقابل معاونته في العمل، بل على العكس تماماً: كان يدعى هياسنت دانس!

لعلني كنت مستعداً لأن أقسم في ذلك الحين على أن كل ما روته الفتيات الصغيرات لنا أيام الحرب عن صاحب المكتبة وشهواته الجنسية الخاصة لم يوجد إلا في مخيلاتهن. فقد كان دانس، فعلاً، يمثل وبشكل تام طرازاً من الناس نعرفه معرفة أكثر من كاملة، ويعرفه كل من سبق أن عمل في واحدة من صحف المحافظات.

أتذكر أول زيارة له للجريدة اليومية التي كنت أعمل فيها. وأكاد أقسم على أنه كان يرتدي سترة على حافتها «ريبة» زينة، وأنه كان يضع شارات وأوسمة من أنظمة أجنبية عديدة.

ولكي يدخل أحد لعند المدير، كان لابد من أن يجتاز المكتب حيث كنا بعضاً من محررين، وكنت أنا ذلك الذي مد دانس نحوه ببطاقة زيارته، بأهمية، وبكرش عدواني، وبعدها جلس وأراح قبعته على ركبتيه، في وضع رجل معتاد على الانتظار.

بطاقته، وحدها، كانت كافية لتصنيفه مع تلك الفئة من الاشخاص العنيدين بشكل خاص، والذين يهاجمون بصبر لا يكل مكاتب التحرير الصحفية:

هياسنت دانس

شاعر، ومؤلف مسرحي

حامل جائزة كوليج سانـ سيرفيه

خريج جامعة لييج

عضو الرابطة الوطنية البلجيكية

عضو سابق في جمعيات الصداقة الفرنسية

وكنا نعرف غيره كثيرين، يعودون بشكل دوري، وينتظرون بصبر طوال ساعات، لكي يحدثوا المدير في نهاية الأمر عن مسألة تمديدات مياه، إن لم يكن عن حفر قناة بحرية جديدة وجميعهم كانت لهم نفس السيماء الوقورة في الانتظار، غير مكترثين بنظراتنا الساخرة، وغير مبالين بالوقت الذي ينصرم أو بحركة الذهاب والمجيء من حولهم.

وسأل المدير:

- وماذا يريد؟ اسأله عن غرضه.

وعدت نحو دانس الذي تذكر فيّ بشكل مبهم أنني كنت أحد زبائنه.

وأجابني، مظهراً لي مغلفاً طبعت عليه الشارة الرسمية لقصر الاليزيه وعليه اسمه وعنوانه:

- قل له: من قبل الحكومة الفرنسية.

وتم استقباله. وكانت قد انقضت نصف ساعة على المقابلة عندما خرج مديرنا من مكتبه وهمس لي:

- ادخل علينا بعد لحظات الى مكتبي وأخبرني بأنني مطلوب بصورة عاجلة جداً في قصر المحافظة. استحال عليّ التخلص منه!

الكذاب لا بد له من كذاب ونصف. فبطبيعة الحال لم يكن دانس مكلفاً بأية مهمة من الحكومة الفرنسية. وقد جاء ليوضح بكل بساطة بأنه مؤلف مجموعة من القصائد في تمجيد عدد من الأمكنة، مثل الإيزير والمارن وفيردون وغابة النبيلات، التي تستحق أن تبقى حية في ذاكرة الناس، و...

وانصرف بكل وقار، مثلما جاء، واستدعاني مديري ومدّ لي لفة أوراق قائلاً بزفرة:

ـ ألق نظرة على هذه... وصحح اذا اقتضى الأمر... يجب نشرها في زاوية من الصفحة بأحرف صغيرة... لم أستطع التخلص منه بأقل من ذلك.

كانت المقطوعة نشيداً شعرياً! وبعد بضعة أيام، تبين لنا أنه قد سوّق واحدة أخرى في جريدة «الليبرال»، وأخرى في جريدة الاشتراكي، بحيث أن توقيعه كان يظهر في كل مكان وبنفس الوقت.

ـ حسن. بذلك نكون خالصين نحن وإياه.

وستون خطأ، ثم خطأ. فهو لم يكن يمكن التخلص منه، ولا الهزء ولا الفظاظة كان من شأنهما أن يفعلا فيه. أكان يقام استقبال في دار المحافظة، مع تقديم أطعمة خفيفة باردة، بمناسبة قدوم شخصية أجنبية في زيارة؟ إذن كنت ترى إذ ذاك صاحبنا دانس، طويل القامة بديناً، بكل وجاهة جلاله، يفيض بابتسامة سيالة وهو يمد لك يداً رخوة قائلاً:

ـ ماذا؟ أراك هنا؟...

ـ كما ترى...

وإذا ما استوضحت مرافق المحافظ لأمور المراسم:

ـ بأية صفة وجهت الدعوة إليه؟

ـ لا أعرف. اسأل عن ذلك أمين السر العام.

وأمين السر العام لم يكن يعرف. بل يعتقد أن دانس قد دخل ببطاقة صحافة.

القول إننا كنا بلهاء يومها الى حد أن نضحك من الأمر،

في حين أنه هو الذي كان يضعنا جميعاً في جيبه! فتلك المناسبات الرسمية لم يكن يمر فيها شخصيات من المرتبة الثانية فقط، بل استمر تكريم أناس مثل الرئيس بوانكاريه، والماريشال فوش، وأمراء، وملوك، والذين دائماً كان دانس يجد السبيل للاقتراب منهم.

- عفواً جلالتكم، هل تتكرمون على شاعر بلجيكي يعد كتاباً في تمجيد بلدكم، أن يلتمس من جلالتكم اكرامه بكلمة وتوقيع منكم؟

الريشة جاهزة، والورق أيضاً. وفي تلك اللحظات، في حرارة الخطابات والمآدب والهتافات المسكنة، لا تنقص الأمر إلا نأمة و...

«الى الشاعر الكبير هياسنت دانس، بكل مودة...».

إما كان هنالك موكب عبر شوارع المدينة، أو قص شريط لتدشين أحد الأنصاب، ولا أعرف كيف كان يتدبر الأمر، إنما كنت دائماً تراه وعلى ذراعه شريطة لجنة التنظيم، على رأس الرتل، وعليه مظاهر الأهمية لدرجة بحيث أنه هو من كان الناس يتوجهون إليه للحصول على معلومات.

- من هذا؟...

- لا أعرف... لا بد أنه عضو في اللجنة...

وقد عاد خمس مرات، عشر مرات الى الجريدة، وفي كل مرة بذريعة مختلفة، وكان يجد في كل مرة السبيل لأن يحظى باستقباله.

- أنا مغادر غداً الى المانيا حيث كلفت بمهمة. لا تسلني عن طبيعة المهمة لأنني لن أملك أن أجيبك، ولعلك بذلك

فطنت وحدك لها. فإذا كان يهمك أن تتلقى مقالات حول ما يجري هناك، فأنا تحت تصرفك كلياً...

وتطلب الأمر مدة طويلة كي نعرف ما الذي كان يسعى فعلاً لبلوغه: بطاقة صحافة، باسمه، مع صورة وأختام، بطاقة صحافة تتيح له يعلم الله وحده ماذا.

كان مديرنا حذراً. ولكن ذلك سلك مع آخر وما عدت أتذكر أيهم كان، وحصل دانس على بطاقته الصحفية، بل هو حتى، اذا كانت ذكرياتي صحيحة، تقدم الى عضوية مجلس النقابة، ولست على يقين من أنه لم يكن في فترة ما في عداد أعضائه.

أكثر مرة ضحكنا فيها منه هي يوم ادعى أنه حقق الرواج للجريدة لمجرد أنه ابتكر فيها باباً يومياً خاصاً بقراءة طالع الابراج يحرره هو، واليوم، بعد انقضاء عشرين عاماً على ذلك، فجميع الجرائد التي تحترم نفسها فيها باب خاص بـ: حظك هذا اليوم، بل وبقراءة الكف.

لا بد أنه كان يملك موازنة لها شأنها لا لشيء إلا للطوابع وحدها، لأنه كان يكتب لأي كان في أية مناسبة ومن دون مناسبة، ومن دون أن يعبأ بأية سخرية يتعرض لها.

«سيدي الوزير،
«أخذت علماً لتوي بأن مشروع تعريض قناة كامبين قد
«تم اقراره خلال الجلسة الأخيرة التي عقدها مجلس
«الوزراء. وباعتباري اختصاصياً في هذا الشأن، وبعد أن
«أذبلت نفسي سنوات وأنا عاكف على هذه المشكلة،
«فإنني أسمح لنفسي...»

تلي ذلك مقترحات يتفاوت ما تنطوي عليه من ذكاء، ثم

التوقيع، تتبعه كل ألقاب السيد إياها، وأخيراً ملاحظة اضافية تذكر بأنه قد تلقى عدداً من كتب الشكر من حكومات أجنبية عديدة على النصائح التي...

وأجهل نسبة الرسائل التي كانت تبقى من دون اجابة عليها، ولكن لنفترض أنه مرة بالنسبة لكل عشر مرات، كان الوزير، أو الرجل ذو السيادة، يلتفت الى سكرتيره قائلاً:

ـ اكتب لك كلمة شكر له. فالمرء لا يعرف أبداً، فقد ...

وهاك دانس وقد وصلته رسالة رسمية مفتخرة، بمستطاعه التلويح بها اعتباراً من ذلك اليوم.

نفس الأمر بالنسبة للمآدب. إنما أحياناً، كان عبثاً يرتدي حلة أبهته، مزيناً بغزارة بالأوسمة، فقد كان يحدث من وقت لآخر أن يتقدم منه أحد المنظمين في لحظة مزاج غير ملائمة مطالباً إياه ببطاقته.

أكانوا يطردونه؟ وبعد، ماذا في ذلك؟ أليس كل مشروع محتملاً لقدر من مجازفة؟ ونتجاوز أيضاً عن اعتبار أن الأشخاص المحترمين يظنون أنفسهم ملزمين بفعل ذلك بتكتم. وهكذا، فالذي يقود الآخر الى الباب، يكون هو شخصياً الذي يعاني الحرج نيابة عن اثنين.

وكان دانس، وهو ينسحب بكل كرامة، يقول:

ـ سأرفع شكوى بذلك للجهة المعنية.

لا ريب أنه منذ تلك المرحلة من عمره، هو الذي قدر له أن يزعم يوماً فيما بعد بأنه ظل طوال حياته مجنوناً، كانت تنتابه لذة سرية وهو يسمع الواحد منا، في البلادة التي كنا فيها، يصرح بثقة متكلماً عنه:

- الرجل مختل. غير سوي.

ما يصيبني بشيء يشبه السحر، أنه من نفسه مضى ناحية دوبلوويه، كما لو أنه كان قد فهم وحده...

وما أجده فذاً، أنه بعد وقوع ما يقع، وبشكل متأخر، ومع فاصل الزمن، ففي الوقت الذي تجري فيه الأمور عيناً على أرض الواقع، ما من أحد يفطن إليها، بما في ذلك أكثر الأشخاص نباهة.

بل لا يقتصر الأمر على أن أحداً لا ينتبه، وإنما يساهم المرء فيها من دون أن يعلم.

فمديري، وهو أكثر رجال الأرض استقامة وتمسكاً بالقيم، قد نشر على أعمدة جريدته نشيداً شعرياً لدانس بقصد التخلص منه.

وفي جريدة أخرى دبلوويه كان يواصل توقيع مقاله اليومي، ويحرر الأخبار المحلية الصغيرة، ويشهد المآدب الرسمية، في حين أننا كنا على علم جميعاً بأن له امرأة تعمل لحسابه في بيت للبغاء ببرشلونة.

ولم يكن يتحرج أن يقرأ بحضورنا الرسائل التي تأتيه منها، مكتوبة بالقلم الرصاص على ورق مسطر. وكنا نتخيل ما بمقدورها أن تكتبه له.

ومع ذلك كنا نسأله، كما لو أننا نستفهم عن صحة أمه:

- كيف حالها، ألا بأس؟

- تتدبر أمورها.

علماً بأنه في الجريدة نفسها التي كان يشارك في تحريرها كانوا يمضون مع هاجس الحشمة لحد منع نشر

كلمات: عشيقة، حامل، وضع طفل، ولا أدري ماذا أيضاً، وكذلك المسلسلات القصصية التي لم يوقعها هنري آرديل يجب ألا تتجاوز في جرأتها تلك التي ألفها ذلك الكاتب.

ولم أكن هناك عندما حضر دانس الى مكتب «نانيس» ولا أعرف ما الذي أمكن أن يرويه كل منهما للآخر.

ومع ذلك فإن دانس لم يظهر على الأرجح في صورة تختلف كثيراً عن تلك التي كانت له حين أخذ بالتردد على جريدتنا.

ـ بدا لي أنني ربما، ونظراً لمعرفتي بالحياة في مدينة لييج، فقد يمكنني أن أفيدكم بشيء بتقديم بعض المقالات... مفهوم أنني لا اعتبرها مسألة أجر ونقود... فأنا شاعر وصاحب مكتبة... وقد ساهمت بالنشر في أكبر المجلات...

وأكاد أقسم على أن دوبلوويه قال في نفسه:

ـ هوذا شخص أكثر غباء أيضاً من سيمنون. ما دام أن هذا لايطالب حتى بمال!

وأنى كان له أن يرتاب ويحترس. فقد كان على قدر من الثقة بنفسه لدرجة! فإنه صمد للمحنة مع مجلته، رغم خذلان المموّل الروماني له! كان يحصل على بعض المساعدات من شركات تجارية ما، ومن مسارح، وصالات عرض أفلام...

أما فيما يخصني، وباعتباري ما عدت رئيساً للتحرير، فإنه كان أمراً لا مهرب منه أن تعقب مرحلة أخرى مرحلة القماطات الرمادية فأرية اللون والياقات ذات الحافتين المنكسرتين.

وكان من شأني أن أرجع الى الـ: «كاك» عن طيب خاطر،

وأعتقد أنني كنت، على سبيل رد الفعل، سيرضيني أن أحلق شعري على الصفر وأن أترك أظافري تطول بوسخها.

سوى أنه لم يعد هناك كاك بعد، وخلال بضعة الأشهر التي تلت، كان خبر سعر المارك في البورصة هو الذي سيحظى بالأفضلية على كل مواضيع الحديث الأخرى، بما فيها أفلاطون، والقديس فرانسوا الاسيزي.

- ومتى ستذهب الى هناك؟

- بعد غد... يبدو أن يوم الاربعاء نهار ملائم... يرددون أنه سيهبط أيضاً...

إن قطارات التزحلق على الجليد في فصول الشتاء مؤخراً، ليست شيئاً بالمقارنة مع تلك، حيث لم يكن يبقى أي مكان خال في الاروقة. كل الدرجات ركابها مختلطون بعضهم ببعض: أناس من الشعب العادي، ومهربون محترفون، من ينقلون البيض والزبدة، والذين لا يتعاملون إلا بالذهب والاحجار الكريمة، البرجوزايات الصغيرات اللواتي بحاجة الى معطف فرو، ومسافرات الدرجة الاولى اللواتي يتخذن سيماء من هو على راحته.

كان الواحد يذهب بملابس بالية وغيارات بدن قديمة، وأحذية تآكل عقباها، وبدءاً من محطة إيكس لا. شابيل أو كولون على الحدود، حمى الهجوم على المتاجر، حيث كان البائعون بين ساعة وساعة، وأحياناً عشر مرات في الساعة الواحدة، يضطرون لاستبدال البطاقات التي تعلن عن الاسعار.

وكان الناس يعودون فيتلاقون في نفس الشوارع. ويتبادلون العناوين التي تمثل فرصة لاتفوت.

ـ هناك على اليسار، بالقرب من الكاتدرائية، توجد بزات خارقة...

عند وصوله، يكون المرء مرتدياً أزرق، وعند الظهر يصير بالرمادي، في حلة كاملة جديدة دفع ثمنها بضعة ملايين من الماركات. وبعد ساعة يعرض على رأسه قبعة مهدّبة السطح ذات لمعان ما، وعندما تدق الساعة الرابعة يتخطر في معطف من صوف مغطى بما يشبه شعراً ملتفاً على نفسه. أما بالنسبة لكل ما كان مخبوءاً تحته!... دانتيل،... قماش حرير بالمتر، ساعات، وقلائد صدر، ويعلم الله ماذا أيضاً؟

النداءات متبادلة من رصيف لرصيف بلا اكتراث لأية لياقة ومن دون أن يشغلنا أمر أولئك الألمان الذين كانوا ينظرون الينا وقد فقدوا حتى شجاعة أن يبدؤوا السخرية.

ـ أجريت لتوي الحساب... في «الكايزرهون»، ومقابل ١٣ سنتيماً تتناول العشاء مع رئيس خدم عند طاولتك وساق يسكب الخمر، وكله...

ويندفع الناس بحمى. كان الضحك يدوي ملء الحلق. والكلام يجري بصوت مرتفع، قوي.

ـ أيها النادل، أيضاً كافيار.

وماذا يهم ذلك، ما دمنا كنا انطلقنا بمائة فرنك في الجيب وها قد اكتسينا من الرأس حتى القدمين؟ ملابس، لم نكن بالتأكيد اعتدناها، رمادي حديدي، ألوان خضراء خاصة بعض الشيء، وقبعات أصلب من المألوف، وأشياء تتسم على العموم بقدر لا بأس به من الرسمية.

ـ كم دفعت ثمناً له؟

- أربعة ملايين مارك.

- في أية ساعة؟

- في الحادية عشرة...

- أنا، عند الظهر، طلبوا مني خمسة ملايين ونصف...

ونساء هوى... والصبية الصغار الذين كانوا يترصدونك عند محطة القطار، ليعرضوا عليك أختهم الصغيرة!...

في الليل، كنا نتكدس في قطار العودة ومع كل واحد شيء يخفيه. كانت ثمة مجموعات نظمت نفسها، وطرود تنتقل من عربة قطار لعربة قطار باضطراد مع اقتراب التفتيش الجمركي، وأشخاص يتشبثون بعربات شحن ذات محورين، ومفتشون جمركيون اشتهروا بالتشدد وآخرون معروفون بتسامحهم.

- أنا، باعتباري «أمرّ» خمس مرات في الاسبوع، يمكنني أن أقول لكم...

إن أكبر اكتشاف انجلى لنا هو أن المال ليس ثابت الاستقرار يعتمد عليه، وأنه فجأة يمكن أن يموت المرء جوعاً وفي جيبه ملايين الماركات.

- عمي صاحب مصرف، أتفهم؟ وهو يؤكد أن المارك لا يمكن أن يسقط لأدنى مما حدث له. البلدان الأخرى نفسها لا تريد ذلك...

- أيجب شراء ماركات؟

- أنا اشتريت بمائتي فرنك...

ونحن أيضاً كنا نشتري، أعترف بذلك. وفي الاسبوع التالي كنا نعود الى كولون، ذلك أن المارك قد هبط أكثر

فأكثر، ونحسب أن ساعة كنا رأيناها من قبل ما عاد يساوي ثمنها إلا أربعين فرنكاً.

دانس، التقيته في شوارع دوسلدورف. وكان دوبلوويه يأخذ القطار مثله مثل الجميع.

كنا ثلاثتنا نرتدي ملابس من الغبردين الضارب الى خضرة، ونحمل نفس الولاعات، ومباسم سكائر متطابقة، مصنوعة من فضة غير مختومة، ونفس الأقلام فيها رصاصات للكتابة متعددة. وما عادت صغيرات لييج يثرن اهتمامنا في الهوى.

- في كولون، مقابل لوح شوكولاته...

كنت على وشك بلوغ الثامنة عشرة.

حدث ذلك في إيكس - لا- شابيل، حيث كنت انتظر القطار بطعم آجن في النفس. وقت ثقيل في الانقضاء فعلاً. ففي الصباح، عند الرحيل، تسود روح لدى الشخص بأنه سيتمكن من أن يشتري لنفسه أشياء رائعة ويلتقي أحاسيس نادرة.

لولا أن السفر الى المانيا أخذ يشبه أكثر فأكثر تلك الطلعات الليلية التي لا ينتهي المشي فيها، النظرة تشعر بالشين، وتراقب المارات بترصد، فتتبع قامة إحداهن لبضع دقائق كي تتعلق بعد بخطى واحدة أخرى، ويراودك أمل واهم بالجديد الفريد، مع يقين في القلب، بأن الأمر سينتهي دائماً في نفس الركن، هناك، حيث ثلاثة أو أربعة طيوف تنتظر بصبر أمام فندق سيء السمعة.

كان المارك يتدهور ولكن الأسعار في صعود. وما الذي كان يمكن أن نشتريه أيضاً مما لم نشتر مثله من قبل؟ إضافة

الى أن غوغاء مقلقة بدأت تدهم «قطارات المهربين»، وكان الواحد من هؤلاء، في المدينة، يرفع عقيرته في مناداتك من بعيد، باعتبار معيار المواطنة، لدرجة أننا في المتاجر كنا نكاد نخجل من الكلام بالفرنسية.

كان معي ساعة يد، وأخرى بسلسلة، وثلاث أو أربع مدي طيّ، ومباسم سكائر (إلا أنني لا أدخن إلا الغليون!) وبعض تحف للزينة لا فائدة منها. ذلك اليوم، كنت على الغالب قد وقعت على امرأة عادية تافهة يمكن أن أحصل على مثلها من دون أن أغادر لييج.

ومنذ العاشرة صباحاً، وأنا آخذ بازدراد السجق لا لشيء إلا لأنني كنت قررت أنه في ألمانيا ينبغي على المرء أن يأكل السجق وكانت معدتي مخبوصة ومنتفخة بالجعة.

بقي انتظار القطار، وأن أتكدس في الممرات مع أناس تفوح منهم رائحة منفرة، ويبادرونك بالكلام من دون تكلف من دون أية معرفة...

على الطاولة المجاورة لمحت نظرتي فتيين من عمري، ربما توأمين، لأنهما كانا يتشابهان في كل شيء. وما أصابني فيهما، كان وجههما الشاحب، العصبي، وعيونهما الحمراء كالأرانب الروسية، وشعرهما الأصهب المشعث. وتحت المنضدة، لاحظت حقيبتي ظهر بلون كاكي كانتا ولا بدّ من أمتعة الجيش.

ثم سمعت الأخوين يتكلمان الفرنسية. وبعد قليل شرعنا في حديث معاً، وأذهلني أن أعلم أنهما منذ طفولتهما وهما يقيمان على بعد أقل من ثلاثمائة متر من بيتي.

- هل ستأخذان أيضاً للعودة قطار الخامسة والربع؟
- لا. إننا سنذهب سيراً على الأقدام.

وعرفت فيما بعد أن عمر الواحد كان سبعة عشر عاماً والآخر ثمانية عشر عاماً ونصف. ومع ذلك، فقد كانا يملكان ثقة من اكتملت رجولتهما، وشيئاً من لامبالاة مترفعة، وسكون وجه متعمد لا يشي بشئ، كان يجذبني ويقلقني معاً.

وباحا لي وهما يشيران الى الحقيبتين:

- العبور سيراً على الأقدام هو أكثر حرصاً.

وتوجب أن نشرب. كنا نشرب على الدوام. وتركت موعد القطار يمرّ، وعندما حل الليل، نهض رفيقاي واصطحباني معهما ومع أحد أصدقائهما حتى بلغنا مدخل غابة، ثم بمحاذاة الطريق العام. وواصلنا السير هكذا طوال ساعتين، وربما ثلاث. وعندما وصلنا الى هربستال، المدينة الحدودية، قام الأخوان بانعطافة طبقاً للعادة التي اعتاداها، ولدى الاقتراب من مراكز الجمرك، أخذا بالتقدم وهما ينزلقان من عتبة لعتبة.

وبعد أن تجاوزنا الخطر، سألت بقلق:

- وكيف سنعود الى لييج؟
- الأمر بسيط، اتبعنا.

وأعتقد أنني كنت ارتعد بقدر ما لو كنت رجل شقاوة حقيقياً بل وأكثر منه، بينما كنا نقفز من فوق الأسيجة ونهيم بين قضبان السكك الحديدية بحثاً عن عربة بضائع.

وأحياناً، ولدى سماعنا لأصوات أو حين نلمح طيفاً يحمل فانوساً عند طرف ذراعه كنا نلتصق في بقعة ظلمة أكثر كثافة من غيرها ممسكين بأنفاسنا.

وجرى رفعي الى احدى العربات. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً عندما تطلب الأمر أن نتحايل ثانية في لييج للخروج من محطة القطارات.

والحال هي أن صاحبيّ، اللذين سأستمر في دعوتهما بالأخوين، كانا يحملان اسم عائلة معروفة، طيبة الأصل، بل ولها الحق أيضاً بلقب نبالة. وأبوهما، وهو صناعي، قد طلق زوجته ويعيش مع امرأة شابة جداً، سوى أنه كان يدفع نفقة لامرأته وولديه.

وأوضح لي الفتيان الصغيران:

ـ إننا مهربان محترفان. ونحن نعمل لحساب بائع جملة للوازم الكهربائية. وفي كل سفرة، نعود ومعنا ثلاثون كيلوغراماً من قطع الغيار.

كانا يقيمان مع أمهما في شقة لائقة، في حي برجوازي. ولم يكونا يترددان على الـ«كاك». ولم يسبق لهما أن شاركا في نقاش حول أفلاطون أو تليا شعراً لفرلين.

هذا لا يمنع أن أمهما، عدة مرات في الاسبوع، عند الصباح، كانت تهرع الى مخفر الشرطة حيث كانوا يعرفونها جيداً.

ـ ألم تروهما؟

ـ لا! اجلسي! سنتصل بالهاتف...

وكان المفوض يتصل بكافة مراكز الشرطة، وهو على يقين من أن أحدها سيجيب:

ـ نعم. إنهما هنا.

ـ كم؟

ـ مائتا فرنك. إضافة الى أن امرأة تزعم بأنهما سرقا ساعتها.

كانت الأم صهباء هي أيضاً، ما تزال شابة، إنما جف عودها، ومع كثير من خيوط فضية في شعرها، وتعبير يظل قلقاً، زائغاً تقريباً، كما لو أن أنفها يحس بلا انقطاع خطراً يحوم حولها.

الباعة الذين تشتري منهم مؤونة بيتها، الجيران والجارات، كانوا يعرفونها

ـ أحتاج أيضاً الى مائتي فرنك... اسمعوا! اذا ما اقرضتموني إياها، سأرهن آلة خياطتي ضماناً... أو... هاك! خذوا... لم يعد عندي إلا هذه الميدالية... إنها من الذهب.

بلغ بها الأمر أن تبكي أمام أي كان، أن تبكي بشكل آلي، مثل صنبور يزرب لوحده، وهي تتكلم لوحدها، مفرغة نحيبها على طول الأرصفة.

وفي المخفر، كانت تدفع، وتقسم أن ولديها ليسا سيئين في أعماقهما، وأنهما سيصلحان سيرتهما وستراقبهما أكثر.

ولكنها تعرف أنه لا جدوى من توجيه خطابات النصح لهما. إذ كانا يكتفيان بهز أكتافهما، وفي أحسن الأحوال بأن يغمغما:

ـ مستأهلة! ما كان عليك أن تلدينا!

لماذا كانا تعيسين بذلك القدر؟ ذلك أنهما كانا تعيسين الى حد فظيع. فقد قضيت سهرات معهما، دائماً في نفس الأمكنة، ودائماً بنفس الطريقة.

ما ذلك الذي كان يجذبهم جميعاً: الدانس، والدوبلوويه، والفتيان الصغار مثل الأخوين، ناحية مثل تلك الأجواء؟ ليس

الرذيلة بذاتها وباعتبارها كذلك. ولئن كانت لدى دانس رذيلة فليست بيوت الهوى هي التي كان من شأنها إرواء غليله، وكذلك الأمر بالنسبة لدوبلوويه. أما الأخوان فلن يكونا على قدر من العافية يجعلهما يكثران التردد على النساء.

لا! فما كان يلزمهم جميعاً، هؤلاء وأولئك، إنما كان ذلك المناخ المحيط ،ضئيل العزيمة واليائس، وتلك النساء اللواتي يرتدين القمصان ويخطن، أو يحكن صوفاً خشناً ملوناً بالقرب من المدفأة، وتلك الجعة الرخيصة تقدم في كؤوس مريبة النظافة...

الكحول، شأنه في الـ «كاك»، لم يكن يفيد إلا باعتباره محرض بداية، وبعده يمكن الكلام، وقول أشياء ما كان ليسمعها المرء في أيما مكان آخر، يتكلم على وجه العموم لوحده، جامد النظرة، وفي الفم مرارة، بينما امرأة ما تنتظر بصبر أن ينتهي ذلك.

وكان أكبر الأخوين الذي له نفس رأس الممثل الهزلي لوريل ونظرته المتكدرة، يسألني:

- ما الحكمة في وجودنا على الأرض؟ ومن الذي يملك القدرة على أن يقول ذلك لي؟ لا أحد! إذن لماذا يحمّل المرء نفسه هم ذلك؟ لا بد على أية حال من الموت يوماً. فنحن الاثنان، من المؤكد أننا مصابان بالسل...

إنهما لم يرتكبا جريمة قتل! هذا لا يمنع من أنني أصاب بالرعب عندما أتذكر ما كشفا لي عنه من مكنون نفسيهما. صاحب المكتبة، هو، قتل ثلاثة أشخاص. ولم يقتل دوبلوويه إلا شخصاً واحداً.

وكان يمكن للأخوين أن يرتكبا جرائم أكثر فظاعة، إذ كانا يشبهان، تفصيلاً، أولئك المراهقين الفاجعين الذين يرسل بهم أكثر المحلفين رأفة الى المقصلة من دون أي تردد.

وكانت أمهما تفضي باعترافاتها لأمي وهي تبكي:

ـ الأكبر، جاء هذه الليلة أيضاً... كانت تفوح منه رائحة كحول... وأعلن لي أنه في حاجة حالاً الى مال... لم يكن بقي أي مال معي في المنزل... لو قلت لك إنني أقضي أسابيع لا أذوق اللحم لأنهما يأخذان كل شيء مني!... لكنه هذه الليلة لم يصدقني... فألقى بي بشراسة أرضاً من سريري كي يبحث تحت الفراش... ثم هددني... وقد ضربني كي أقول له أين أخفي مدخراتي... ومع ذلك فهو ليس فتى شريراً!

لقد رأيت، إذا جاز القول، هذه المرأة تموت. كنت أتحاشى ابنيها، إنما كان يتفق لي أن التقيهما عرضاً، وأحياناً كانا يأتيان لرؤيتي في الجريدة كي يقترضا مالاً مني.

كانا يحومان في المدينة مثل كلبين هائمين، نحيلين، ضيقي الخلق وشكسين، وأنا على يقين من أنهما ما كانا ليترددا في مهاجمة أحد المارة لو أنهما علما بأن محفظته ملأى جيداً بالنقود.

وذلك لا لشيء، وإنما ليذهبا وينهدّا بعدها في أحد «البيوت» ويعيشا فيه بضعة أيام في حال من الذهول زائغ البصر، الى أن يلقى بهما خارجاً.

ذات صباح، جاء من أبلغ أمي بأن أمهما تتوسل إليها بأن تذهب لرؤيتها. وفعلت أمي، فوجدت المرأة المسكينة مرتدية جلباباً:

- ينبغي بأية طريقة أن تنبشي لي تنورة، أو أي شيء كان!
هذا الصباح جاءا كلاهما. ولما لم يكن معي شيء أعطيهما إياه، فقد حملا آخر ملابسي وأحذيتي ليذهبا ويبيعاها. حتى ولا أستطيع أن أخرج من البيت.

ثم دائماً هذه اللازمة:

- أقسم لك بأنهما ليسا شريرين! هنالك من ينصحونني بأن أتقدم بشكوى. وأنا أعرف أنه اذا ما سجنا، فإنهما سيموتان من ذلك...

وقد ماتا من دون ذلك، وبفاصل زمني قصير بين الواحد والآخر.

ومع ذلك، فالكبير بينهما بذل محاولة ما. فهو ذات صباح، وعلى غير توقع، تطوع في جيش المستعمرات. وقد أرسل على ظهر أحد المراكب الى الكونغو. إلا أنه جرى حمله الى ظهر المركب وهو سكران، ذلك أنه كان قد قبض مكافأة تطوع. وطوال رحلة الذهاب، لم يظهر مرة واحدة على ظهر السفينة، فهو لم يصح من السكر مرة واحدة طوال ثلاثة أسابيع واعتلت صحته ومرض.

في ماتادي، لم يقبل الرؤساء به، فلم ينزل هو الى البر. ورجع كما ذهب، بحالة سكر دائم، وإقياء متواصل، لكي يعاد الى الحياة المدنية بعد شهر أو شهرين من السجن العسكري.

بعدعامين من ذلك، أكملت الأم باقي عمرها وماتت، في الخامسة والأربعين، يابسة العود، مهدودة الجسد، وبشيء من رطوبة بقي لها أثر في عينيها.

في تلك الفترة، كان أحد الأخوين موجوداً في باريس،

حيث كان يهيم في سوق الهال فيها، والآخر في مدينة بوردو أو بريست.

كانا شابين من عائلة طيبة، حسني التربية، على قدر لابأس به من التعليم، وبالإجمال أكثر ذكاء من المتوسط العام.

وباعتباري عشت فيما بعد في باريس، فقد التقيت مجدداً أكبر الصبيين وهو يتسول، كان مصاباً، وهو الذي لا يكاد يكون بلغ الثانية والعشرين، بمرض خبيث لا يبرأ.

وأعلمني بلا مبالاة:

- يبدو أن أخي قد مات في اسبانيا.

وروي له أن ذلك كان في برشلونة.

مثل دوبلوويه! وهكذا، كانوا يتبعون جميعاً نفس الطريق من دون أن يعرف أحدهم الآخر. أتوجد دورة إذن ضبطت مسبقاً لهذا النوع من المصائر؟

ولم يكن البكر منهما يعاني من أي شعور بالخزي، لم يكن ينوح باكياً، بل قال بلهجة تقريرية:

- نخرني العفن. وما عادوا حتى يرغبون بإبقائى في المستشفى! في الشتاء أتدبر أمري لأصل الى الجنوب. ذلك أن الأكثر ارباكاً هو أمر النوم خارجاً...

ومضيت أستعيد ذكرى قطار البضائع حيث كنت أخذت مكاني بجانبهما، ووضعت رأسي الى جانب رأسيهما على حقيبتيهما للظهر...

- امتزوج أنت؟... هل أنت مسرور؟...

لا مرارة! وقد عاد مرتين أو ثلاث مرات ليقرع بابي، رأعترف بأنه في النهاية أخذ يخيفني، وتساءلت عما يمكن أن

يحدث فيما اذا اتفق له أن لمح، وقد وجدني وحيداً في البيت، مالاً على الطاولة.

أنا على يقين اليوم من أنه ما كان ليتردد، وأنهم كانوا سيعثرون عليه، عقب ارتكاب جريمته، في أحد الشوارع سيئة السمعة، غارقاً بعد افراطه في الشراب في استرخاء وسنان بين الفتيات وهو يتوجه إليهن بأحاديث طويلة لا يفهمها أحد.

وأنا على يقين أيضاً من أن أمه، وطوال سنوات، راودها نفس الخوف، وقد انزاح هم عن صدرها إذ ماتت بطريقة مغايرة مما لو حدث الأمر بيد أحد ابنيها.

ومع ذلك، فهما وكما قالت أمهما لم يكونا شريرين.

عندئذ، أكاد أشعر بالرغبة في أن أتوجه بالسؤال لكل واحد:

- كم قاتلاً، كم قاتلاً فاتته فرصة أن يرتكب جريمته، مثل حال الأخوين، عرفت في طفولتك؟

هل كان من عرفت هم النصيب الذي آل إلي، وهو مجرد الحصة العادية للفرد في معرفته بعضاً منهم؟ وهل ذلك نقاية طبيعية لمجتمع ما.

وإلم يكن كذلك، فما معنى أن أرى في ظرف سنوات قليلة الصغير ك... يموت، وأن أعرف هياسنت دانس، وأشارك في العمل مع دوبلوويه، بينما كنت أتبادل الكلام مع الأخوين من دون تكلف وأية رسمية؟

لا علاقة للمكان بالأمر أليس كذلك؟ ولا وجود لمدن أصابها القدر بلعنة، ومدينتي هي على أية حال نموذج للبرجوازية الصغيرة محدودة التفكير.

هل ينبغي البحث عن تعليل ذلك في الزمان؟ هل ثمة أطوار لتخمر يكون أكثر حدة أو أيضاً فترات تهب فيها تيارات تحمل المرض؟

بالتجرد عن أية رومانتيكية، فأنا أميل لأن اعتقد ذلك، وبخاصة لأنني بين من عرفت من الشباب، أعثر عند جميع أصحابي تقريباً، وإن بشكل أقل حدة، بالضبط، ما جعل من الأشخاص الذين أتيت على ذكرهم مجرمين.

وبالطبع، كنا قرأنا الروايات الروسية. إنما هل ذلك سبب كي نغلق على أنفسنا، ونحن في السادسة أو الثامنة عشرة، في غرف موبوءة، سواء كان ذلك الـ «كاك» أو الجزء الخلفي من القاعة في ماخور في المنطقة الثانية؟

من أين جاءنا ذلك الهوى بالنساء؟ الأدنى سقوطاً، وبالممارسات الغرامية الأدعى للنفور، وبذلك البوح بالسرائر بفم مزبد، وبذلك التوهج غير النظيف ما بين كأسي خمر؟

هل كان ذلك بذنب دوستوييفسكي أو فيرلين؟ ألم يكن ذلك بالأحرى بجريرة حرب عشناها، أطفالاً كنا، من دون أن نفهمها وتركت ميسمها على أرواحنا على غير علم منا؟

لست بعيداً عن أن أعتقد ذلك، فقد عرفت ألمانيا بضع سنوات بعد مرحلة التضخم الذي يصيب بالدوار، والتي كانوا يعدون الماركات فيها بالملايين، بل والمليارات.

والأمر، هو أن الشبيبة التي التقيتها، تلك التي كانت في عمرنا نحن عقب الاحتلال، كانت هي أيضاً موسومة بميسم لعنة.

ألم يكن الشباب يستأجرون أمكنة كي يجتمعوا فيها؟ كانوا

يتناقشون بأقل مما في الـ «كاك»، ولكن يشربون بنفس القدر، وذلك غير عقاقير أخرى كانوا يتعاطونها بالإضافة. ثم، وبتوحش، ومثلما كنا نستثير نوبات غنائيتنا الوجدانية، كانوا هم يدفعون نوازعهم الجنسية الى أقصى مداها.

إن تلك هي الفترة، تذكروا تلك الفترة، التي كان يجري فيها توقيف جميع طلاب الصف في احدى المدارس الثانوية، لأنه تم العثور على فتاة صغيرة ميتة، فتاة صغيرة أحضرها أخوها معه وسط الصبيان واستخدمها جميعهم ميداناً لتجربته.

الفترة التي كانت معظم الدعاوى القضائية فيها، فيما وراء نهر الراين، تجري في جلسات سرية، ولا ينقضي يوم من دون أن ينتحر فيه مراهق.

ومثل الأخوين، كان أولئك المراهقون يقولون:

ـ ما الذي نفعله هنا على الأرض؟

لقد رؤوا أباهم يفلس في أيام قليلة، وأمهم ترتضي عشيقاً لتأكل.

إنهم رؤوا ثروات تبنى وتنهدم بأقل من الوقت اللازم لعد أوراق النقد. وما عادوا يؤمنون بشيء أو أحد.

وكانت قوات الاحتلال، في عتمة الشوارع التي طليت مصابيح أعمدتها بالأزرق، قد علمتنا في وقت هو بالنسبة لعمرنا مبكر جداً، نوعاً من ملذات معينة، وكنا نعرف منها أن النساء إذا ما عضهن الجوع فهن يسلمن أنفسهن.

بل ما هذا الذي أقول؟ فقد عرفنا نوعاً من «شعر» الجوع. إذ رأينا، العائلة، بعد العودة من توزيع الإعاشة، وهي تتقاسم

الخبز مستخدمة الميزان في ذلك، وكل يراقب أنصبة الآخرين بغيرة. ورأينا البطاطا وهي توزع بالعدد على الصحون، كما أنني ابتكرت مفتاحاً مزيفاً كي أسرق قطع سكر من بيت المؤونة عند أهلي.

وبرزت بذلك فروق في الأمزجة لدى الأطفال، فأخي مثلاً، كان يحتفظ بحصته من الخبز في يومين أو ثلاثة كي يستطيع، مرتين في الاسبوع، أن يصيب وقعة مشبعة، بينما نحن، وبعد نفاد نصيب كل منا، كنا نمضي بنظراتنا ناحية أخرى.

ثم، وما إن هدأت حماسة النصر، رأينا أنه لا يجري توقيف أي من أولئك المستغلين الذين لطالما أشارت الأصابع إليهم بالاتهام، وإنما على العكس، فقد استقروا في المقام من التراتب الاجتماعي الذي كان سبق لهم أن احتلوه.

كنا رأينا...

وبنفس المعيار، فما الذي كان يُتوقع أن يؤول إليه فيما بعد أولئك الأطفال الألمان المتضورون جوعاً، الذين كانوا في كولون وفي دوسلدورف، يترصدوننا عند زوايا الطرقات ليبيعنا الواحد منهم أخته، وهم يعرفون أن أمهم في مكان ما من المدينة كانت تمنح نفسها للرجال على مقاعد الحدائق؟

لولا الاحتلال أكان يمكن لواحد مثل دانس أن يروي، دون خوف من رادع، ميوله نحو الفتيات الصغيرات قبل سن بلوغهن؟... ولو لم تكن حماسة ما بعد الحرب تلك، أكان بمكنته ببضع قصائد أن يجمع لنفسه إمضاءات ذلك العدد من الشخصيات الشهيرة؟...

ودوبلوويه، الواصل لتوه من باريس، بينما بقينا نحن طوال أربع سنوات لا نعرف أي شيء مما يجري خارج حدودنا، كان كاللعبة بالنسبة إليه أن يظهر لنا وكأنه شخص عظيم، بل إن مدراءه أنفسهم كانوا يقعون تحت تأثير ذلك.

أجهل إن كان ثمة وجود لما يسمى فترات الاستقرار، أو اذا كان الأمر مجرد سراب يتوهمه النظر، لأنني من ناحيتي لم أعرف آية واحدة منها.

ففي الحادية عشرة من عمري، كانوا يدفعوننا بعجلة أمامهم الى القبو لأنه يجري قصف المدينة، وفجأة كنا نسمع صرخات. فعلى بعد مائة متر من بيتنا، جرى قبل قليل تجميع مائتي مدني لا على التعيين واطلاق النار عليهم وظهرهم لجدران البيوت.

وفي الثالثة عشرة من عمرنا، كانوا يرفعون لنا الطلبات من أجل معاملتنا بتسامح ورأفة:

- ينبغي معاملتهم برقة،.. فهم يعانون من سوء التغذية لدرجة...

وكانوا يقودوننا الى المرتفعات كي نسمع صوت دوي المدافع. أو كنا أيضاً ننطلق الى الريف، وكانت أمهاتنا اللواتي ارتدين ثلاث تنانير تحتية فوق بعضها، يخفين فيها بضعة كيلوغرامات من الحبوب.

وكانوا يعلموننا كيف نخدع وكيف نهرّب وكيف نكذب:

- اذا ما سألك الألمان، ستجيبهم بأن...

كانوا يعلموننا كيف نستغل الزوايا المظلمة، وأن نحيا في نصف عتمة، وأن نهمس، وباعتبار أن التجول في الشوارع بعد

ساعة كذا من المساء، كان ممنوعاً، فقد كنا يذهب بعضنا لعند بعض ونحن ننتقل فوق أسطحة المنازل في ضوء القمر...

وكانوا يكلفوننا، نحن الاطفال، بأن نحمل الى الطرف الآخر من المدينة رسائل من الجبهة، والتي من شأنها، إذا ماتم اكتشافها مع شخص كبير يحملها، أن تعرضه للاعدام رمياً بالرصاص.

أمن ذلك المنبع كان ينبجس انجذابنا الى غموض الأسرار والمناخات الموبوءة؟ ألأننا عشنا خلال تلك السنوات في حالة توقد الحواس شعرنا بعدها بذلك الاحتياج الى المشاعر المتقدة، طبيعية ومصطنعة.

أم أن الأمر بكل بساطة لم يكن يتجاوز رومانتيكية جديدة لمراهقين؟

وقد قضى الصغير ك... نحبه من جراء ذلك على باب كنيسة، ومات منه الأخوان، الواحد في باريس والآخر في برشلونة.

وعلى وجه الاجمال، لا يوجد الا الصغير ك... قضى نحبه في مدينته. الآخران رحلا متبعين خطوط سير متطابقة تقريباً. لقد ذهب دوبلوويه الى برشلونة ومدريد، ودانس ذهب الى هناك أيضاً.

دوبلوويه ارتكب جريمة قتل في باريس، غير بعيد عن محطة الشمال، ولكن مكان توقيفه كان سان - إتيين.

دانس اختار أول الأمر قرية صغيرة من الريف الفرنسي، ولكن صوفيته، ما لم يكن ذلك هاجس انقاذ رأسه، دفعته للعودة الى لييج ليقدم على انجاز آخر حركة له.

في الروايات، هذا كله شديد البساطة، والمؤلف، لكأنه العناية الإلهية، يقرر من عنده أن فلاناً فعل هذا الأمر أو ذاك لهذا السبب أو ذاك.

هذا لا يمنع أن هنالك أشخاصاً عرفتهم في مراحل مختلفة من حياتهم، أشخاص عرفت فعالهم ومغامراتهم الأبرز، والذين فوق ذلك شاركتهم بعض انفعالاتهم وعواطفهم، وإنني لأتساءل بجزع: لماذا؟

ولو أن الأخوين كانا في صحة أفضل، فهل كانا سيتصرفان على نحو مختلف؟

وهل كان لشيء أن يتغير لو أنهما عاشا بين أم وأب؟

ولولا وجد دوبلوويه نفسه على رأس جريدة تمارس الابتزاز، أكان يحتمل أن يتجنب التدهور الكريه؟

ودانس، لو لم ينجرف الى اللذاذات الملتبسة، ولو أنه لم ينغمس في أعمال السحر، أكان سيقتل أمه وعشيقته منهالاً بضربات المطرقة على رأسيهما؟

وهل؟...

يا له سؤال مريع! إذ يبلغ ذلك المرء حدّ أن يتساءل:

ـ لماذا هو، وليس أنا؟

أو أيضاً:

ـ لو أنني كنت مصاباً بالسل وكانت أمي قد طلقت...

ألم نكن نرتاد ذات البيوت السوقية، أو لم نكن نشرب بنفس الطريقة لكي نمنح أفكارنا طابعاً أكثر ابهاماً.

ألم نكن نتكلم بصورة متطابقة معبرة عن سقوط الأوهام حول القواعد الصنعية التي تنظم حركة المجتمع؟

ما الغريزة التي كانت، فيما يعنيني، تدفعني لأن أنتقل من هذا الوسط الى ذاك بالسرعة الكافية متجنباً الغرق في أي منها، ولأن ألبس مرة أقمطة رمادية اللون، وأخرى قبعة رومانتيكية الطراز؟ وبعد رحلتين أو ثلاث الى المانيا، لماذا سئمت الأمر بما يكفي وأخذت أتجنب الأخوين؟

لماذا؟ ولماذا؟

ولماذا، في الوقت الذي لم أكن أعرف فيه شيئاً بعد، فارقت دوبلوويه في اللحظة المحددة بالضبط الت. أخذ الأمر يتسم فيها بالخطورة؟

لأن دوبلوويه، حتى ذلك الوقت، شأنه شأن دانس، أمكنه أن يظهر بمظهر الشخصية المرموقة. وعندما افترقت عنه، بعد التعاون معه لفترة قصيرة جداً، فإنه كان مايزال منتسباً الى المجتمع المنظم، ولا شك بأن الفرصة كانت متاحة له للبقاء في وسطه ولأن يفلت من مصيره.

وكذلك فإنه كان متاحاً لدانس أن يبقى صاحب مكتبة وهو منصرف في ذات الوقت لنزوته في نظم الشعر، وجمع التواقيع، وعرض صدره في القميص المنشّا في المواكب، وممارسة أعمال السحر في الجزء الخلفي من متجره، بل وحتى أن يروي بحذر ميوله «الليبيدية» الجنسية.

ـ ٦ ـ

انفجر ذلك في مدينة لييج مثل تصرف فاقع النشاز وسط مأدبة احتفالية. وأخذ الجميع يشترون «نانيس» كي يروا، وحتى أولئك الذين لم يكونوا يفقهون شيئاً في الصحافة، أحسوا جسامة الأمر.

وأذكر أنه في السنتين اللتين أعقبتا الحرب، غرقت باريس في غمر من صحف، بذيئة بهذا القدر أو ذاك، متطرفة كما كان يقال عنها في ذلك الحين. والأمر، هو أن بعضاً من تلك الصحف كان يديرها هواة، جاؤوا الى الصحافة من التجارة أو الصناعة.

لم يكن هناك مجال للخطأ، أقسم لكم! وما كان له، في محل آخر، أن يبدو في مظهر دعابة هازلة، تنأى بما يكفي عن ايقاع الأذى، صار هو نفسه في تلك الصحف مجرد بذاءة عارية.

وحدث الأمر نفسه بالنسبة لـ «نانيس». فالروماني نشر مقالين فيها بقصد الابتزاز، وما من أحد، فيما عدا الأطراف المعنية، فطن للغرض.

ولكن دانس بسط فجأة شره، وتم دفع الحدود الى الوراء في كل المجالات، في مجال استثارة الهزء والاستنكار، وبخاصة في مجال سفاهة الذوق والسوقية الغثة.

«سننظف كل ما تراكم من قذارة في حظائر أوجياس...»

عندئذ، ومنذ عدده الأول، أخذ دانس يخلط الحابل بالنابل وهو يدل على القذارات إياها، واضعاً كل شيء فيها، كيفما اتفق، على هوى ما تدفعه إليه، مصادفة، خيبة سالفة أو ضغينة قديمة.

«... نعم، أيها السيد س... وأنت الذي تلطخنا بوحل الطريق حين تمر بنا في سيارتك الباذخة، سنثبت بتقديم شهادات على ذلك لا تدحض، أنه عندما كنت مستخدماً صغيراً في شركة ز...، فإن عدم إحالتك الى عدالة القضاء لم يكن مرده إلا كرم وشهامة مخدومك.

«... وسنروي، كيف أنك بسرقتك كل يوم بضعة طوابع كنت تحقق لنفسك دخلاً اضافياً يبلغ مائة فرنك في الشهر، الأمر الذي أتاح لك...»

كان ذلك جماحاً وانفلت، قنبلة تنفجر، جحيم دانتيه، يعيد كتابته صاحب مكتبة صغير، سبق أن سمع شيئاً عن سيرة الراهب ذي الخطب النارية سافونارول، الذي انتهى بأن أحرق حياً على أنه الأعور الدجال، ولذلك فهو، دانس، بدهائه الأريب، يريد أن يغمز الجمهور ويكسب مالاً فوق ذلك.

«وأنت، السيد المستشار البلدي، أو تنكر أنك في كل يوم جمعة تقصد بيتاً معيناً في شارع «الزهرة»، وأن احداهن تدعى نعمى، ويلقبونها ميمي، وليس بلا سبب، تعرف هي خيراً من أي كان معالم جسدك التشريحية؟ ألا بد من مزيد من التحديد؟ هل ستضطرنا لتحدي الرقابة كي...».

وكان الناس البسطاء الطيبون لايكادون يصحون مما قرؤوا. إذ لم يحدث أن رأى أحد من قبل مثل ذلك. وأخذوا يتساءلون عما اذا كان الأمر سيستمر. ويتساءلون خصوصاً عمن يمكنه أن يحل فجأة أزرار الثياب على ذلك النحو.

«السيد اللحام ب... الذي تستغل الشعب، أنذرك بأنني سأقول كل شيء...».

كان ذلك المخلوق يطبع الأسماء كاملة، بلا اختصار، ويعطي العناوين.

«نحذر في الحال أهالي مدينة لييج من أن الخرّاج سيفقأ، حتى ولو فاحت منه رائحة نتن طاعوني، وحتى لو اضطر بعض رقيقي الاحساس لأن يسدوا انوفهم...».

ما الخلافات العاصفة التي نشبت بين هياسنت دانس ودوبلوويه خلال تلك الاسابيع من التعاون معاً؟ لا أدري شيئاً قط. فأنا لم أكن حاضراً هناك. ولم يحدث البتة أن التقيتهما في ذلك المكان الصغير، حيث شغلت لمدة لحظة مقعد مدير، والذي لم يكن أكثر من كرسي قاعدته من القش.

أما دوبلوويه الذي استمر لقائي إياه في الدائرة المركزية للشرطة، حيث كنا ننبش تقارير الضابطة لغرض تحرير

أخبارنا المحلية الصغيرة، فهو لم يكن يذكر شيئاً البتة عن معاونه أو عما يكتب.

ويلفت انتباهي الآن، بعد زمن انقضى، أن دوبلوويه إذا كان لديه شيء من التبجح بنفسه، فهو لم يكن يخوض عن طيب خاطر في شؤونه الشخصية أو في أمور غيره.

والقضية هي أن هنالك نوعين من الأشخاص يلتزمون صمتاً مترفعاً في كل ما هو شخصي بالنسبة إليهم، وهم: الارستقراطيون، وأهل المهنة. أليس هؤلاء وأولئك ارستقراطيين، على أية حال، كل على طريقته، في ابدائهم نفس الاحتقار نحو الجمهور الانفعالي الصياح، الذي لا يعرف الواحد منهم غير أن يتكلم عن نفسه ومتاعبه الصغيرة؟

كنا اجمالاً قد عشنا مع دوبلوويه سنوات من العمر. ولم تكف الفرصة تعرض لنا لنلتقي كزملاء في المهنة. ويرى أحدنا الآخر في «الكاك». كان دوبلوويه على النقيض تماماً من شخص صموت، إذ كان يتدخل للكلام بأكثر من الدور لمخصص له، مطيلاً الكلام وبلهجة يتقصد تفخيمها.

هذا لا يمنع من أنه اذا أخذنا كل شيء بعضه مع بعض، فنحن لم نكن نعرف شيئاً عنه، ونعرف عنه أقل مما نعرف عن اي منا. ولئن كانت له امرأة في بيت برشلونة، ويذهب أحياناً لرؤيتها، ليكن. ثم ماذا بعد؟

وأن يكون في سنوات الحرب، في ضواحي حي مونمارتر حيث عمل في الصحافة من قبل، ارتاد أوساطاً مضطربة بقدر ملحوظ، يلتقي المرء فيها، في اختلاط عجيب، أفراداً من بقايا عصابة بونو للسطو الضاري على المصارف، وآخرين من

قدامى ارهابيي النسف بالديناميت، فإنه اذا ما عرضت اشارة أحياناً تمس ذلك، فإنما كي لا يقال أي شيء عن الأمر، وكأنما بقصد جعل السر أكثر كثافة.

ولدى إمعان النظر في الأمر، فأنا على يقين الآن من أنه كان يحتقرنا، جميعنا، وأيا من كنا، محررين ومديرين، رسامين صغاراً أو أبناء بورجوازيين، كان يحتقرنا من دون الحاجة لأن يظهر لنا ذلك، فقد كان يعتبر أننا لم نكن لنا طاقة على الفهم.

خلال الدعوى أمام المحكمة. هتف محاميه:

- أقر أيها السادة بأن موكلي منحرف...

وأعتقد أنا أن دوبلوويه كان أفضل من ذلك. فلكي يصير المرء منحرفاً، لا بد له أن يكون قبلها قد مرّ بطور كان هو فيه واحداً، أيا من كان، من الشباب الصغار الطيبين. وأنا لا أستطيع تخيل دوبلوويه في ذلك الدور.

دانس هو، تجاوزاً، لعله وبمشقة، كان يمكنه أن يصير بورجوازياً بشماً، أما دوبلوويه؟

«نانيس»، كانت فضيحة. ولم يكن فخوراً بذلك. لا يمنع من أنه لم ينطق بكلمة عن الأمر. بل بقي على ما هو، على ذات الصورة، بمعطفه الأبدي المخصور، وقبعته اللباد السوداء، وعصاه، وحقيبته الجلدية، وشاربيه الدقيقين يكشفان عن أسنان حادة.

وفي الواقع، ورغم أنه كان كثير الابتسام، إنما لا أتذكر بأنني رأيته مرة واحدة وهو يضحك.

وما الذي كان سيجعله يضحك؟

«نحن فخورون بأن نعلن لقرائنا، أي كل أهالي مدينة لييج،

بأننا نتلقى يومياً تلالاً من الأوراق الرسمية المختومة. وهذا برهان على أن حملة التنظيف التي نقوم بها تصيب الذين يجب أن يصابوا. إنهم يعتقدون بأن في مقدورهم ايقاف المكنسة المنتقمة عن طريق لجوئهم الى عدالة هي نفسها ليست دونهم عفناً، والتي سيأتي دورها على أعمدة صحيفتنا...».

عرفت بعدها مبتزين سادة في المجال وبأبعاد غير التي لدى دانس نهائياً، إنما كان له على الأقل سمة واحدة مشتركة معهم هي: النفور الذي لا يقهر من الظهور بين الناس، حيث يمكن أن يتعرض للمخاطر.

وانا على يقين من أنه مع حلول الليل كان يقوم بنفسه بإغلاق النوافذ الخارجية ويتأكد من سلامة أقفالها ورتاجاتها، وأنا متأكد أيضاً من أن الادراج في مكتبه تحتوي على ترسانة كاملة من الأسلحة، وأنه في الطريق كان يحرص على البقاء على مسافة كافية لأن يسمع رجل الشرطة صوته اذا هو صرخ.

«ولادة أخرى في الخفاء...»

كان كل شيء صالحاً عنده، قضايا الآداب العامة، والصفقات المريبة والثرثرات التي راجت قبل عشرين عاماً. وكان الناس يتساءلون: كيف لرجل واحد أن يختزن في دماغه كل هذه القصص الفاضحة؟ بل يتبادر للمرء بشأنه أنه منذ ولادته وهو يفرغ جميع أوعية الحاجات الطبيعية في غرف النوم وكافة سلال المهملات في المدينة.

ذات يوم، لم يأت دوبلوويه الى دائرة الشرطة، وفي اليوم التالي حل محله آخر من جريدته معلناً:

- إنه رحل؟

- بشكل دائم؟

- هذا، لا يمكن التيقن منه. فقد حدث ذلك له مرتين من قبل، وفي المرتين كان قد صرح بأنه لن يعود.

- الى اسبانيا؟

- طبعاً...

أما بالنسبة لـ «نانيس»، فقد صار هياسنت دانس من الآن، مالكها الوحيد، مديرها الوحيد، محررها الوحيد، والمستخدم الوحيد فيها، ولا بد أنه في تلك الفترة إنما تأكدت لديه القناعة بأن حلم حياته قد تحقق أخيراً.

لا تسألوني، مالذي يجعل أن هنالك علاقات بين حانات مثل «الحمار الأحمر»، التي نجد نفس المغنين الهجائين يؤهلونها في العديد من مدن الأقاليم، وبين شوارع برشلونة ما قبل الثورة الاسبانية، ولماذا يتجمع هنا وهناك أشخاص لمحتهم العين في ضواحي حي مونمارتر...

يرجع ذلك فيما يبدو لي الى أجيال تقدمتنا، والتي بدلاً من مناجاة أفلاطون والله الآب في الـ «كاك»، كانوا هم يطبعون في الخفاء صحفاً فوضوية تنادي بالحرية للفرد.

وفي ليبج، عندما كان دوبلوويه يذهب في عطلته، كنت أتساءل بسذاجة:

- لكن لماذا برشلونة؟

نعم. لماذا ليس نيس أو ايطاليا؟ إذ كنت أتصوره يسعى الى الشمس والألوان متميزة الطرافة.

ومثله، ففي «الحمار الأحمر»، كان المغنون الهجائيون وقد علا الدسم شعورهم الذين يغنون أكثر المقاطع انتقاماً وروحاً

متشفية، يتبادلون فيما بينهم الأحاديث عن أصدقائهم في برشلونة، وينطقون بهذا الاسم مثلما ينطق المؤمنون ولا بدّ باسم مكة.

فيما بعد، في باريس، في دوائر الصحافة وأوساط الرسامين، قدر لي أن ألتقي كثيراً من أصدقائي وهم يقولون بمنتهى الطبيعية وبلا اهتمام:

- سأقوم الاسبوع القادم بجولة في برشلونة.

وكما يمكن أن تعرف بعض المناضلين السياسيين من شكل لحاهم أو من إهابهم، وفي طرقات الأبرشيات، وأنت ماش، تميّز وحدك أعضاء المجلس المليّ، انتهى الأمر بي لأن أتعرف من بعيد، بالغريزة، الواحد من «جماعة برشلونة».

يا للأسف!

إن المراهق من أبناء اليوم، سيلقى بلا شك قدراً من عنت في فهم قصفنا الصوفي في الـ: «كاك»، فأناما يزال صعباً علي أن أتكلم عن ثمل الحرية الفوضوية.

إنها أزياء تروج وتنقضي بسرعة. وإن الكثيرين ممن كانوا برفقة الصغير ك...، في ليلة عيد الميلاد الشهيرة التي سبقت شنقه نفسه، هم اليوم رجال هادئون ومحترمون.

وأعرف مديري صحف وصناعيين، عديد منهم كانوا برشلونيين قدامى من الفترة الملحمية، ولعلهم لن يقبلوا بالاعتراف بدويلوويه كواحد منهم، ذلك شأنهم، فكل واحد يدافع عن قناته الخاصة من الصوفية، وكل له أن يفتح أبواب كنيسته لمن يريده هو.

فنحن مثلاً، لا نعترف على الفقير كواحد منا، ولئن ترك

موت الصغير ك... تأنيب الضمير عندنا، فهذا لا يقلل من زعمنا بأن الفقير هو الذي قتله.

قد يمكن لـ «جماعة برشلونة» إذن أن يعاملوا دوبلوويه كما نعامل نحن الفقير وأن ينكروا عليه انتماءه إليهم رامين به في صف القوادين المبتذلين.

وتبقى المقارنة قائمة. فالصغير ك... كان ضحية لأنه لم يفهم. فهو لم يفهم أننا اذا ما كنا نلجأ الى الكحول والى الأثير بقصد تأريث صوفيتنا، ولئن كنا نستحضر الشيطان والله، فما كان ينبغي المضي بعيداً في ذلك وجعل السبب محل النتيجة وجعل النتيجة محل السبب، وأن يحشو أنفه بالكوكايين وأن يخضع لتنويمه مغناطيسياً كل يوم.

وما لم يفهمه بشكل خاص هو أنه مع كوننا صادقين، فإننا كنا نبقي عيناً صاحية في مراقبتهما، السبب والنتيجة، إلم يكن لشيء فلكي نرى أنفسنا وكي نتمتع بمذاق المشهد.

والأمر هو نفسه بالنسبة لدوبلوويه. أي بقول آخر، فهو قد أخذ كل ما كان يقال له على محمل الجد. فهو إذ غاص في صوفية الحرية، التي لم تكن تنقصها مسحة جنسية، شأن الأمر في الـ«كاك»، فإنه خلط بين كل شيء، ما بين المبادئ والأفعال، الغاية التي تبرر الوسيلة والعمل المفتقر للكرامة...

ولئن كنا احتجنا الى جو مضطرب مشوش كي نشرع فيما نحن فيه، ألم يكن فوضويو زمنه من دعاة الحرية المطلقة يجتمعون في مخازن المؤونة وأكواخ الصفيح في الضواحي مدقعة الفقر، وهناك أيضاً ألم يكن ثمة تجاوز مع نساء لا يفتحن النفس؟

لقد استمر، هذا كل الأمر! إنه مضى حتى النهاية، مثل الأخوين اللذين ما عاد في مقدورهما أن يعيشا في مكان آخر غير الماخور، مثل آخرين أعرفهم و«يقيمون فيه بانتظام» بل يمضون لحد استئجار غرفة فيه لمدة شهر، لا عن رذيلة فيهم، بل لأنهم يحتاجون لهذا المناخ.

وهو إذ أخفق في عمله كناشر، ثم كمدير جريدة، فإن دوبلوويه رحل ليلحق بامــــرأته في برشلونة، وهناك، على سطيحات المقاهي، توفر له كل الوقت للنقاش في أمور السياسة الصرف، وريعية النساء في امريكا الجنوبية.

لا أعرف بشكل جيد هذا الجزء من حياته، ولكنني أعرف دوبلوويه، وعرفت غيره بعده.

أولاً، إنه كان، جمالياً وأخلاقياً، في مكانه بالضبط، وهو في سطيحة مقهى في برشلونة أو مدريد. كان يملك الأناقة والطلاقة المستخفة المطلوبين، وذلك النوع من التكتم على النفس المترفع، وخصيصة الانفعال للاشيء، وأخيراً تلك الكلمات الفجة المتسمة بالفظاظة، التي تضفي نبرة الطرافة والغرابة على الحديث.

في الـ «كاك»، كنا نتلو مقاطع من القديس فرانسوا الاسيزي.

وكان بمقدور دوبلوويه أن يتلو صفحات كاملة من كتاب نيتشه: هكذا تكلم زرادشت.

لماذا بحق الشيطان تكلم محاميه عن: انسان منحرف. إنني قلت تقريباً قبل قليل إنه كان ارستقراطياً، بالطريقة التي كان الصغير ك... فيها رائي مستقبل مخفقاً، أو ربما نوعاً من

الشاعرين فيرلين، وفيون اللص معاً.

وراءهما، ألا يبدو الوجه السمج والمتعرق لذلك البرجوازي الصغير دانس، وهو يجرب نفسه في صوفيات مختلط بعضها ببعض، ويتعاطى أعمالاً مشبوهة، أشبه بمخلوق كاريكاتوري؟...

وقد جعل دوبلوويه عادته أن يقضي وقته بعد الظهر في الرامبلاس، في المناقشة والشرب والتدخين، والاستعلام بين حين وآخر، كسيد عظيم، عن رقم أعمال «امرأته».

ثم، وذات يوم، اتخذ اثنتين... امرأتين.

وبعد ذلك، رحل الى مدريد ليلتقط فيها اخريات لأمريكا الجنوبية.

ألم يقرر رفاق بونو، باسم مبادئهم، تشليح أحد جباة المصارف؟

من جهة كما من أخرى، يوجد أيضاً ذلك الثمل بأن الجمهور الواسع عديم الشكل وعديم التشكك لا يفهمك، والنضال دفاعاً عن كل شبر ضد الشرطة.

هنالك سعادات، نحن الأكثر تهيباً، لم نعرفها. كأن تذهب حاملاً الطيبات لزيارة صديق في السجن، أو أن يعرض المرء نفسه لأن يحكم عليه بدلاً من آخر على أن يتكلم.

شعر كامل على وجه الاجمال... وفي الشعر، ليست المادة هي التي تهم: بل طريقة استخدامها، وهو ما يأتي به الشخص ذاته من عنده.

في لييج، لا بد أن دوبلوويه كان يشعر بفرح لا يمكن قوله بكلمات، لاحتقاره إيانا جميعاً، أيا كان عددنا...

في برشلونة، كان في مقدروه أن يحتقر كل أولئك الأغبياء الذين كانت الرغبة الجنسية تدفعهم لأن يدفعوا لامرأة مالاً سيؤول الى جيبه.

وفي السجن، كان يزدري الشرطة ومخبريهم وذلك القاضي المعرض للاصابة بالسكتة الذي يفصل في أمور الحياة كما لو كان يعرف شيئاً عنها.

حتى التدهور البطيء، كانت له ولا بد جاذبيته. فالمرء يعتاد بشكل جيد جداً على فندق من الدرجة الخامسة، وفي يوم من أيام البؤس، يمكن أن يجد المرء إثارة ما في النوم على مقعد بعد أن يكون وقف بالدور ليحصل على حساء شعبي.

هذا «السقوط» كما قال المحامي، استمر طويلاً، سبع أو ثمان سنوات، مع صعود وهبوط، ونوبات غضب لأنهم سرقوا امرأة منه، وأفراح لأنه وقع على غيرها تدر ريعاً أكبر...

«فيردينان دويلوويه، كاتب في المواضيع العامة...».

ذلك أن له مهنة. وشأنه شأن ريمون ـ العلم، فإن ماضيه يشفع له ببعض الاعتبار، وأيا كان الدرك الذي يسقط إليه، فإنه يجد أناساً للاعجاب به.

وخلال تلك الفترة، فإن كتلة الابتذال ذاك، المؤلف من أجهزة عضوية وغدد صم، والذي هو هياسنت دانس، ظل يتابع قتاله ضد المدينة بأكملها، من مكمنه في الجزء الخلفي من متجره، خالطاً بين التجارة المتدنية وبين هاجس ضغائنه القديمة واجبة الإرواء، يهاجم القضاة والتجار، ويحاول إثارة فضيحة مرة، والحصول على رشوة في مرة أخرى، متقاضياً الثمن عن جهره وعن سكوته على حد سواء.

ذلك أن «نانيس» استمرت في الظهور! ومهما بدا الأمر لا يصدق، فقد كان الناس يفضلون سحب شكاواهم على أن يروا ما يهددونهم به من شين منشوراً على الملأ في وضح النهار. ولم يكن بيد السلطات أن تفعل أي شيء، فالرجل ابليس في أمور التقاضي، والاجراءات المتخذة ضده جعلها بمماطلته تستمر أعواماً.

ما من شيء لم يمر على تلك الصحيفة. البداية كانت بالأجسم والأخطر، ثم وبسبب الافتقار للمواد، انكفأ على الصغائر. لم يعد في الأمر فضائح، وما عادت الأمور تتعدى ثرثرات ولغو حراس الأبنية السكنية.

لم يرق لك المستأجر؟... يمكنك دائماً أن تكتب لـ «نانيس» التي ستخصص نصف صفحة لواقع أن زوجة السيد المقيم فوق، تستقبل حالما يستقر زوجها في مكتبه، شاباً صغيراً، بل وحتى يستأنفان دائماً ذلك ثلاث مرات.

هل طردت خادمتك؟... سيبتهج دانس بأن ينشر بالنص الكامل كل الظلامات التي ستوجه ضدك، بما في ذلك الريث العابر على ردف الخادمة في القسم الخلفي من المطبخ...

لقد تبع الرجلان، دانس ودوبلوويه، طريقين مختلفين أفضيا بهما الى سجن الأشغال الشاقة، على الرغم من أن طريقيهما حدث وتلاقيا.

صحيح أيضاً أن طريقيهما تلاقيا مع طريقي أيضاً.

دانس، هاجمته صحف رصينة؟ حسناً، يبادر فوراً الى نشر نسخ مصورة عن الرسائل التي تلقاها يوماً، مذكراً بأن هذه الصحف نفسها سبق أن نشرت أشعاره.

إنه يعـارك. يحـدث جلبـة. ويحس أنهم يتكلمـون عنه. إنه يتـخـبط لاهثـاً من ضـيق النفس فـي مـسـبـح مـفـرط فـي ضـآلة أبعاده.

أمـا دوبلوويه، فـقـد غطس بمـرونة، ومـا مـن أحـد من أصـدقـائه رآه يعـود للظهـور على سطح المـاء. وكـانت بعض الصحف الصغيرة، في اسبانيا، وفي فرنسا، وبشكل متقطع، توفر له مأوى لكتابته غير الموقعة. وكان يجد دائماً سريراً على قياسه في أحد بيوت الهوى.

عشيقته الرسمية الآن تدعى بيرجريت، وعشيقة دانس اسمها آرماند وتمارس نفس العمل.

واحدة فقط من الاثنتين ستقضي نحبها قتلاً،لكن ستقع ثمة جرائم أخرى، ثلاث أربع، خمس...

وتعترض المتاعب دوبلوويه في كل مكان تقريباً، متاعب لم يقدر لها أن تحط من معنوياته، ما دام الأمر متمثلاً أيضاً بأن تعامله الشرطة معاملة شخص مشبوه، في حين أنه قد وضع نفسه هو على هامش المجتمع، بنفسه، متعمداً.

إنه منذئذ بات ينتسب لأولئك الذين، ولأقل حجة، يطلب إليهم إبراز أوراقهم الثبوتية التي لابد من تفليتها، أولئك الذين يرسلون بهم الى مركز الشرطة لأوهى سبب ويجري إخلاء سبيلهم في الصباح، مع بضع دفعات مباغتة أو رفسة على أقفيتهم.

هل ظل يفكر أحياناً بالزمن الذي كنا نحرر فيه الأخبار المحلية الصغيرة ونكتب بكل فضيلة، شأني شأنه في ذلك:

«توقيفات: هذه الليلة، جرى توقيف امرأة ما سيئة السيرة

تدعى: إيما ... بعد نشلها محفظة نقود تاجر محترم هو السيد ف... من مدينتنا».

أو أيضاً،

«الفتيان الفاسدون: شخص يدعى جوزيف ن...، مجهول مكان الاقامة، جرى توقيفه بتهمة تشرد خاص».

وهذا بالضبط ما كان يفعله هو بين برشلونة وبوردو وكليرمون فيرّان وسانت ـ ايتين: تشرد خاص. ومعه، بالمناسبة، شيء من اتجار بالرقيق الأبيض فوقها، ذلك أنه فاتن يغوي، محدث لبق، قادر على اقناع خادمة ما، أو فتاة عاطفية المشاعر، بأن تقرر الصعود الى مركب والرحيل الى امريكا.

ويأتيه الخبر، ذات يوم، عن طريق الصحف، بأن مدير «نانيس»، وهو شخص يدعى هياسنت د... حكم عليه بالسجن سنتين بجرم الابتزاز.

لولا أن هياسنت د...، حكم عليه غيابياً، لأنه كان حرص، وقبل المحاكمة بزمن طويل، على أن يعبر الحدود بصحبة عشيقته.

ما الذي كان بوسع دوبلوويه أن يفعله غير أن يهز كتفيه بقرف باد، أو حتى أن يغمغم بين أسنانه:

ـ مستأهل...

لكن ما لا يعرفه بعد، والأدعى للعجب، هو أن الآخر جاء ليلحق به وبشكل نهائي في مهنته الحالية.

وفعلاً، فإن دانس وحالما وصل الى فرنسا، سرعان ما أنفق المال القليل الذي كان حمله في رحيله. ومن حينها، ولكي يعيش، لم يبق له من وسيلة رزق الا مثلما لدى دوبلوويه: تشغيل

أرماند في بيت هوى في شارع القاهرة، وهو بيت يعمل بنشاط، وبخاصة أيام السبت، حيث المرأة التي تعرف ما تعمل لا يتوفر لها الوقت لتتنفس.

ويجهل الرجلان أحدهما الآخر. وهما في مكانين بعيدين هذا عن ذاك، وكل منهما يتدبر خطته بقدر ما يستطيع، فقد وعى تماماً أن زمن التجارب قد ولى وعليه أن يتعامل مع حاضره الراهن، وبخاصة أن يثبت، وحتى أن يتشبث بكل قواه بمصدر الدخل الوحيد الذي ما يزال قائماً.

بيرجريت... أرماند.

رجلان تجاوزا الأربعين وفاتهما سن الاغواء

فمن من الاثنتين ستتعتق من قيودها اولاً؟

وأي من الرجلين سيقدم على القتل قبل الآخر؟

- ٧ -

العام ١٩٣١!... وبموجب المصطلحات المعمول بها فنحن الآن رجال، على الرغم من أنني فيما يخصني، لم أستطع الاعتياد يوماً على فكرة أنني شخص كبير.

لم يعد ثمة من «كاك» وراء كنيسة القديس فوليان. وإن أحد رسامينا الفتيان الأكثر توهج مشاعر بات اليوم يدير مشروعاً تجارياً لبيع دهان الأبنية، وفي أيام الأحد، يأخذ يدي ابنته الصغيرة وابنه الصغير الى نزهة في الـ: «كارّيه»، المربع.

شارلوت تزوجت ورزقت طفلاً: ويؤكدون لي أنها كشفت عن كونها أماً برّة لاتقل عن غيرها في ذلك - وآمل أنها اتخذت قرارها بأن تعنى بنفسها.

من كل صف أكاديمية الفنون الجميلة، بقي مع ذلك اثنان يمارسان الرسم، بل إن أحدهما تم مؤخراً تعيينه مدرس رسم.

زيجات، وولادات، وأمراض، شأن الأمر دائماً. وعندما يقع

لنا أن نلتقي في نهاية شهر قمري، فإنما لنسوق الكلام على طريقة خالاتنا وعماتنا:

- هل تتذكر أوسكار؟ لكن بلى تتذكر. ما بك، ذلك الذي كان يسكر أول الجميع دائماً ويظل يقيء بلا انقطاع... توفيت زوجته الأولى من ورم. والثانية تعمل في متجر «السوق الكبير»، في قسم ألعاب الأطفال...

- وأولغا؟

- كادت تموت هي أيضاً. الآن، تحسنت صحتها...

كل صار شيئاً ما: رسام جريدة، دهان أبنية، وكيل دعاية، منتج مياه غازية.

دوبلوويه يعيش في مدريد، مع بيرجريت، وآخر بطاقات زيارة مطبوعة باسمه تحمل مهنة نقاش. وتعمل بيرجريت في ملهى ليلي في مراقصة الزبائن واجتذابهم للشرب. وهي هناك تعرفت الى الشاب الاسباني رومانتيكي الاسم: كارلوس دو تييالدا، موظف في مصلحة البريد والبرق.

تنقضي أسابيع، ويتشمم دوبلوويه شيئاً فيراقب عشيقته، وها هي ذات يوم وقد بلغ منها السأم مبلغه تصرح له:

- هذا لا يمكن أن يستمر. تييالدا يحبني، وأنا أحبه. وسوف نعيش معاً.

واحد آخر، تييالدا هذا، لا بد أنه كان شاباً لطيفاً صغيراً قبل أن يصيبه هوى الملاهي الليلية.

وسنتحري الأمور اعتباراً من الآن بالطريقة الأكثر بساطة وتفاهة. أو بالأحرى لا. فإن تفصيلين سينقذان الأمر من التفاهة.

أولاً: رد فعل دوبلوويه الذي يتذكر أنه سبق أن كان صحافياً، ومبتزاً أريباً، وأنه لم يفقد بعد نزعته الى الكتابة. وفي غضون بضعة أسابيع كتب الى غريمه ما لا يقل عن «سبع وثمانين رسالة تهديد» جميعها أكثر دقة في التفاصيل الواحدة من الأخرى، غير تارك أدنى شك حول نواياه في القتل.

لم يكتب الى تييالدا فقط، بل الى رؤسائه أيضاً، أي الى ادارة البريد والبرق، لاطلاعهم. وكتب أيضاً، وفي نفس المنحى الى عائلة الشاب، وأكاد أتصوره معتم الوجه مغيظاً، حواف قبعته مهدلة العزيمة، وهو يسود الصفحات على سطيحات المقاهي، باحثاً عن نقطة الضعف، والعبارة التي تحقق الغرض، والمكيدة الشريرة التي ستصيب الهدف.

أتخيله وهو يترصد بيرجريت عند خروجها من الملهى حيث ما تزال تتابع الرقص، وأقدر أن تييالدا هو هناك، يده على مقبض مسدسه، ويدفع صديقته نحو احدى سيارات الأجرة الصغيرة.

وقد تقدم الثنائي بشكوى، وجرى استدعاء دوبلوويه مرتين الى مركز الشرطة، واحتجز بضعة أيام لمخالفات تافهة متنوعة.

واستمر الأمر يتجرر طوال أشهر، وبعدما أعيت الحيلة دوبلوويه، عاد الى باريس مستديناً على اليمين وعلى اليسار من الأصدقاء، ويشتغل من حين لآخر ببعض الأعمال الصغرى، انما في المساء، ظل لا يستطيع إلا أن يكتب الى مدريد رسائل تقطر حقداً.

أهو عاشق لبرجريت؟ أم أنه اهتاج لرؤية وسيلة رزق تفلت منه؟

وتفاقم لذع الحزازة في نفسه بقدر افتقاده للمال، فينطلق ثانية الى مدريد حيث يحاول أن يلتقي مجدداً عشيقته القديمة، في حين أنها هي، وقد دب الذعر بها، تحمل عشيقها على أن يرافقها في الرحيل الى باريس.

أليس في هذا الذهاب والاياب الفوضوي شيء غير متصل بعضه ببعض ولا منطقي الى حد مضحك. هذا القطار الذي يصل دوبلوويه فيه الى مدريد بالدرجة الثالثة... وذلك الآخر الذي يهرب العاشقان فيه، فاحتجزا عدة أيام على الحدود لأن جوازي السفر عليهما آثار حك وتحميل؟

ولم يعد تيبيالدا بعد شاباً صغيراً طيباً، ولا موظف البريد الشغوف بالرقص، فهو سيكتشف نزعة فيه، هو أيضاً، الى كتابة الرسائل. وكل هذه الرسائل، بالنهاية، التي كتبها دوبلوويه، وتلك الصادرة عن دانس، ورسائل تيبيالدا، لم تكتب بحبر على شيء من اختلاف يلحظ.

وبالفعل، فإن الاسباني الذي ادعى لنفسه لقب راقص عرض ذي طبقة، أخذ يتردد على صالات الشاي الراقية في باريس، مبدعاً في توريط سيدات بورجوازيات على عتبة الكهولة، وأولاء هن اللواتي كتب إليهن مطالباً إياهن بمال مقابل تكتمه.

وقد أقام الثنائي في الطبقة السادسة من بناء في شارع موبوج. وانصرف كل منهما يعمل في ناحيته. وكان كل منهما ينام خارج البيت لأسباب مهنية.

وتوجب على دوبلوويه أن يجد المال أولاً ليعود من مدريد الى باريس. ومضت الأمور من سيء الى أسوأ، ولدى وصوله،

وقع عليه أن يرضى بغرفة مفروشة، هناك فوق كلياً، في شارع الفلاندر، بحي الفييت.

هل يتوفر له أن يأكل كلما جاع؟ هذا غير مرجح. وهو إنما اشترى معطفه الواقي من المطر بعشرين فرنكاً من بائع للأشياء المستعملة.

وفي ٢٦ تموز، تقدم في شارع مويوج لابساً على تلك الصورة بحيث لم تجد حارسة البناء فيه أي شيء يستلفت انتباهها، وسألها عما اذا كان تييالدا ما يزال يسكن البناء ويعيش على عهده مع بيرجريت.

- بالنسبة للسيدة لا أعرف شيئاً، فمنذ عدة أيام لم أرها... أما بالنسبة لتييالدا فلا بد أنه في مسكنه.

وبعدها، انصرف تفكير الحارسة عنه، وفي اليوم التالي لم تستغرب ألا ترى مستأجرها. وفي الثلاثين من الشهر فقط، وبعدما حاولت عبثاً زعزعة بابه، قررت أن تسارع بإعلام مركز الشرطة، وبعد قليل تم اكتشاف جثة الاسباني الذي قتل بطلقين ناريين من مسافة قريبة وترجع وفاته الى أربعة أيام خلت.

وكتبت الجرائد: «اكتشاف جثة راقص عرض في شارع موبوج...».

«الافتراض المطروح: انتحار».

وتعرف بيرجريت عن نفسها وتؤكد أن تييالدا لم يكن لديه أي سبب للانتحار. وعن طريقها، تم أخذ العلم بوجود دوبلوويه وبرسائل التهديد. وجرى تعميم أوصاف رجل لييج على جميع المراكز وفي كل الاتجاهات، ذلك أنه في نفس يوم اكتشاف الجريمة، غادر هو غرفته في شارع الفلاندر.

«معطف واق من المطر مثقوب بثلاث طلقات...».

ولئن لم يهز الخبر الرأي العام، فالجرائد تكلمت مع ذلك، كما أن المعطف الواقي زود الأمر ببعد الاثارة الطريفة، وكان هو اللباس الذي دفع دوبلوويه ثمنه عشرين فرنكاً وتركه وراءه في غرفة الفندق. والأمر، هو أن القماش كان مثقوباً، على ارتفاع الجيب، في ثلاثة مواضع، كما لو أن النار قد أطلقت من خلاله.

أليست هذه هي نفس طريقة الغانغستر الذين أخذوا يظهرون في الأفلام الامريكية منذ بعض الوقت؟

بل إن دوبلوويه سيقدم تفصيلاً غير متوقع، ما كان كتاب السيناريو الامريكيون ليجرؤوا على ابتكاره.

وبالفعل، فقد كفت الصحف شيئاً فشيئاً عن الكلام عنه. لكن هذا لم يضعف من تفتيش الشرطة القضائية والأمن العام عنه طوال أشهر في كل مكان، سواء في فرنسا أم خارجها.

وطوال عام، فإن الاشخاص الذين قضى سوء حظهم بأن يشبهوا دوبلوويه من بعيد أي شبه، تعرضوا للتفرس بهم في محطات السفر وفي مراكز الحدود. وجرى تمشيط الغرف المفروشة بعناية فاقت كل ما عرف.

هل يعني ذلك أن صاحبنا القديم، وهو في الثالثة والأربعين، انجلت دخيلته فجأة عن شخصية اجرامية شيطانية البراعة؟

إذ ها هو يوم يحل، وفي حين لم يعد يفكر أحد به، فقد حدث في سانت - ايتين، والعمل جار في تصنيف بطاقات أوصاف السجناء، أن عقد مدير أحد السجون حاجبيه وأنعم النظر طويلاً في صورتين فوتوغرافيتين، الواحدة للوجه

والأخرى صورة نصفية، ثم في صورة طبعة بصمات خمسة أصابع اليد.

وسأل: ـ أما يزال هذا الفتى عندنا؟

ـ طبعاً ياسيدي. فأمامه ثلاثة أسابيع باقية ليمضيها.

ـ منذ كم من الوقت وهو عندنا في السجن؟

ـ سبعة أشهر على ما اعتقد. سأتأكد من الأمر...

وكان ذلك متعلقاً بدوبلوويه، دويلوويه الذي يجري البحث عنه في كل مكان، في باريس، وفي الأقاليم، وعلى الحدود، والذي أرسلت أوصافه الى الشرطة الأجنبية، دويلوويه الذي كان خلال ذلك يقضي ببال ناعم حكماً خفيفاً في سجن سانت ـ ايتين عن جنحة غير ذات شأن.

القاتل الذي، وهو في السجن، يفلت من كل الملاحقات!

وأقرأ في صحف تلك الفترة التي أوردت وقائع المحاكمة:

«دويلوويه، أبيض الشعر تماماً وهو بعد في الثالثة «والأربعين، والذي له لحية صغيرة مدببة، ليس في ظاهره أي «شبه بالقواد الذي يتهمونه بأن حاله صارت إليه.

«إنه يعبر عما يريد بلطف. ويتكلم بلباقة عن الواجب «الذي أداه خلال الحرب. فهو قد شارك بتحرير جريدة جبهة، «لجنود الخنادق، وتذوق الأدب، وقد وصف نفسه بأنه «أديب، كاتب مقالات على الأقل، واتخذ اسماً له دو بلاو.

«ساهم كذلك بتحرير منشورات متنوعة وأسس مجلات «شهرية اختفت اليوم: الحمار الأحمر، ونانيس، مثلاً. وما «من واحد من تلك المشاريع ازدهر، الأمر الذي يمكن أن نهنئ «أنفسنا عليه».

هي ذي كذلك صورة فوتوغرافية له، تمثله وهو جالس في قفص الاتهام، في غاية الهدوء كما عرفته دائماً، مائل الرأس قليلاً، في وضعية مندوب الى مؤتمر سياسي ما يؤدي مهمته بوجدان. ولولا القليل، لو أنه كان يدون ملاحظات، لأمكن الاعتقاد بأنه إنما يشهد بصفة صحفي محاكمة ما، أية كانت.

- أطلب عفوك، سيدي الرئيس...

من يومه وهو عنده بعض التأنق المتكلف، وتذكرني اللحية الصغيرة التي تركها تنمو بأنه في مرحلة ما من رفقتنا كنت لقبته بآراميس، ثالث الفرسان الثلاثة، بسبب يديه الصغيرتين، وحركاته الدقيقة المنمنمة، وشاربيه الرقيقين مرفوعي الحافة فوق أسنانه الحادة.

- أتنكر أنك كتبت رسائل التهديد هذه؟

- لا يسعني أن أسمح لنفسي انكار ماهو بديهي يا سيدي الرئيس، ومع ذلك فربما كان هنالك تمييز واجب ما بين المشاعر التي يعبر المرء عنها وهو في أوج نوبة غيرة، وما بين حركة يتم انجازها بدم بارد، وعمد...

- أتنكر أنك قتلت تييالدا؟...

- أنكر ذلك يا سيدي الرئيس.

- عرفت حارسة البناية والجارتان رسمياً فيك الرجل الذي في الـ: ٢٦، أي في يوم الجريمة، سأل عما اذا كان الاسباني في بيته...

وهنا، ابتسامة أعرفها جيداً، وحركة اليفة لرفع حافة الشارب...

- عرضت لي في أحيان كثيرة، وباعتباري صحفياً، المناسبة لأن أتابع قضايا جنائية، وأنتم تعرفون مثلي يا سيدي الرئيس - وخيراً مني من دون شك - هشاشة معظم الشهادات. وهكذا، ففي عام ١٨٩٦ في فيينا، كما يورد هانز غروتز ذلك، أستاذ العلوم الجنائية...

لم أكن في المحاكمة، واعترف بذلك على الفور، وكان بمقدوري أن أحضرها. فقد بدا لي أن دوبلوويه إنما يلعب على حياته، وأنني لا أملك الحق، بحضوري، في أن أجازف بإرباكه، وأن انتزع منه أدنى قدر من برودة أعصابه.

بيرجريت، هي، كانت حاضرة، ولسبب. ألم يكن ذلك بفضلها اذا ما توجهت ابرة التحقيق نحو دوبلوويه، أو لم يكونوا على وشك اقفال القضية؟...

إنها لم تتردد عند قاضي التحقيق في معاملة دوبلوويه على أنه قواد وعلى أن تعترف بأنها انفقت عليه طوال سنوات.

ولكنها أمامه ها هي تتبلبل:

- تقرين بأن المتهم بعد فصم العلاقة بينكما لاحقك أنت وتيبالدا بكتب تهديد؟

- لقد هددنا، نعم. إنما...

إنما ماذا؟ ما الذي ستقوله، بينما هو، في قفص اتهامه، باق على هدوئه لا يظهر شيء عليه؟

- لو أراد أن يقتل، أظن أنه كان فعل ذلك قبلها، منذ مدريد، حيث سنحت له الفرصة مائة مرة ليفعل...

- أتزعمين الآن أنه بريء؟

- أعتقد أن فصم علاقتنا يعود الى زمن أبعد من أن يوحي

له بعد بمثل هذا الفعل...

ولم يبتسم دوبلوويه. ولقد رأيت دائماً عنده ذلك المظهر المتباعد تجاه النساء. وإنها هي الأكثر اضطراباً والتي تشعر بالحاجة لأن تضيف:

- ويهمني أن أقول «إنه كان دائماً بالنسبة إلي الرجل الأكثر ظرفاً الذي يمكن أن يوجد...».

لكن يوجد المعطف الواقي! ولن يجد دوبلوويه صعوبة في قول إنه عندما اشتراه بعشرين فرنكاً، كان المعطف مثقوباً من وقتها. ولا يتذكر تاجر الحاجيات المستعملة شيئاً عن ذلك وهو ميال بالأحرى للدفاع عن بضاعته.

هنالك أيضاً حارسة البناية والجارتان، والأمر هو أنه في شارلروا حيث يزعم دوبلوويه أنه كان موجوداً في وقت الجريمة، لا يتذكر أحد أنه التقاه.

يجري الكلام عن شخص حاد عن الطريق... هذا، أنا على يقين من أنه يستثير هزأه وأن الكلمة نفسها لا تستدعي الى شفتيه إلا تعبير امتعاض محتقر.

جرى الكلام عن بيوت الهوى التي ارتادها ومختلف المهن التي عمل بها؟ أظن أن من شأنه كان أن يتباهى بها عن طيب خاطر.

كان أعضاء هيئة المحلفين المحترفون يتطلعون إليه بفضول، ويثبون في أماكنهم لكل تفصيل لا أخلاقي يكشف لهم. ثم ينسحبون بوقار. وبعدها يعودون، أكثر احمراراً قليلاً، ويسعل رئيسهم عدة سعلات خفيفة قبل أن يقرأ الحكم: نعم، بالنسبة للاتهام الأول. لا، بالنسبة للاتهام الثاني.

لم يرغبوا برأسه الجميل الصغير ذي اللحية الصغيرة وأزاحوا عنه بكل لطف العمد. وأعلن الرئيس:

- عشرون عاماً من الأشغال الشاقة، وعشرون: منع اقامة.

هذا كل شيء! كل شيء على الأقل بالنسبة للمحلفين، لرجال القضاء، للصحافيين، وبالنسبة لنا. وينفتح باب، ويختفي دوبلوويه بين حارسين.

لكن بالنسبة إليه، ليس كل شيء. إنها عموماً مجرد البداية. ولنحسب: في الثالثة والستين، أو بالأحرى قبل ذلك بكثير اذا ما كان حسن السلوك في السجن...

وأراهن على أنه سيبقى هو نفسه بالضبط: عين ساخرة النظرة، ولحية صغيرة معني جيداً بها، اليدان ناعمتان بيضاوان.

فهم هناك، لن يرسلوه، بديهي، ليكسر حجارة على الطريق. سيجدون سبيلاً لاستخدامه في المكاتب أو في المستوصف. إن له طريقة رائعة في الرواية، وأكاد أقسم بأنه سيحدث تأثيره في سادة الادارة أولاء وسيصير نوعاً من شخصية.

ومن يدري؟ ألن تولد الفكرة لديه بأن يصدر باستخدام الزنكوغراف جريدة سجن؟

لقد حضرت رحيلاً الى جزيرة سان - مارتان دو ريه حيث سجن الأشغال الشاقة. وكان بين الراحلين الطبيب لاجيه، في حلة خاصة بلعبة الغولف، بنية اللون ومن قماش انكليزي. وطوال الوقت الذي استغرقته الاجراءات الأصولية، وعلى الرغم من الفضوليين، ومن السينما، وعلى الرغم من السلاسل التي في يديه وقدميه، فقد استمر يبدي مظهر رجل المجتمع،

لدرجة أن المرء يكاد يقول عنه إنه كان يبتسم للملائكة، بينما أخذ رفقاؤه يحيطونه من حينها بالاحترام.

وما الداعي لأن يفقد دوبلوويه ثقته بالنفس التي لم تفارقه يوماً؟

واذا كانت الجرائد تصلهم هناك، فما الذي خطر له بعد ذلك بعام عندما علم أن دانس، بدوره...

أما بالنسبة لهذا الأخير، فالأشياء لم تقع بنفس الطريقة. وفي جلسة المحكمة لم يأت أي أحد ليعلن بشأنه بأنه «كان دائماً أظرف رجل يمكن أن يوجد...».

وقد اقتضى الأمر اللجوء الى التحايل ليتيسر ادخال المتهم الى قصر العدل، ولولا رجال الشرطة لجعل حشد الناس المحاكمة أمراً زائداً عن الحاجة.

في الفترة نفسها تقريباً التي كانت تجري فيها محاكمة دوبلوويه، كان التاجر القديم للكتب المستعملة الذي وصلت أمه الى فرنسا ملتحقة به يستأجر في بولليه ـ لي ـ ترو، على بعد ثلاثين كيلومتراً من باريس، منزلاً في الريف، واسعاً بقدر كاف، عند طرف القرية، في مواجهة بركة الماء بالضبط التي ترد البهائم إليها في الصباح وفي المساء لتستقي منها.

هو أيضاً مهنة له، كان يذكر، كاتب مقالات، التي تفتن عدداً كبيراً من المغامرين.

وكان في نظر الملاّك الرجل الأكثر احتراماً، ممتلئ الصحة ويوحي بالرفاه، لا يتكلم إلا عن صلاته مع الأوساط الرسمية، وعن التضحية التي ارتضاها بانسحابه الى الريف من أجل توفير الهدوء لأمه ومن أجل صحتها.

وجرى الانتقال الى المسكن، واهتزت ستائر النوافذ، كما في كل القرى، بينما كان يجري عد قطع الأثاث وتحف الزينة، لا غنية ولا فقيرة، متباينة الطراز بالأحرى، والتي تأخذ أمكنتها في الغرف.

وكانت تحضر هذه العمليات امرأة شابة عادية جداً، مسحاء الى حد ملحوظ، قدمها دانس على أنها احدى القريبات وكانت تأخذ حالاً قطار العودة الى باريس.

وكانت تلك هي أرماند كومتا، نزيلة أحد بيوت الهوى في شارع القاهرة، أرماند كومتا، التي تتخذ بمجرد انتهائها من العمل مظهر امرأة بورجوازية صغيرة خجول.

وكُتب، كتب كثيرة، كتب بأكثر مما رأى أولئك الفلاحون طوال عمرهم، وبنفس الوقت أشياء غريبة ندت لها خلجات عصبية في الوجوه: أقنعة معذبة مثل وجوه أناس موتى، وجماجم، وعظام كان دانس يحل عنها الأغلفة بحرص بالغ الدقة.

هذا لا يمنع أنه كان «شهماً»، كما قد يقال في الجنوب. لم يكن متعالياً! فهو منذ الأيام الأولى دخل الى المقهى عارضاً نفسه بجهر، وشد على الأيدي كرجل محب للشعب وشرب نخباً مع واحد يمثل كل واحد. وكان يقول مؤكداً:

- لا أفهم كيف أن الناس يمكن أن يكونوا على قدر من الجنون ليعيشوا في اضطراب المدن وجلبتها.

ولعمري، فإن أولئك الفلاحين الذين كان سيسرهم أن يقيموا في باريس، لم يسؤهم أن يروا أحدهم يحسدهم على ما قدر لهم.

- أتدرون أنه بفضلي سيأتي يوم تشتهر فيه قرية بولليه شهرة المحجة، وسيتقاطر اليها الناس من كل صوب كما هم يذهبون الى لورد أو ليزيوه؟

هذا، كان أصعب على الابتلاع. كان الناس يتبادلون النظرات بارتياب. يسعلون. هم م! ماذا كان يقصد بالضبط؟ هل ستتراءى له نبوءات عن الغيب؟

- وسترون ما أعلنه عليكم يتحقق! فأنا ولي ديانة جديدة...

وكانوا يمضون ويتكلمون عن ذلك في الأكواخ تحت سقوف القش!

كانوا يقولون:

- على أية حال. هنالك أمر مؤكد: إنه طيب مع أمه.

- ما هي هذه المرأة التي تأتي من باريس كل يوم جمعة وترحل مجدداً يوم الأحد؟

- أنا، قيل لي إنهما ينامان في نفس الغرفة... لقد شوهد الضوء...

- حتى لو صح ذلك...

كانت لدانس ميزة: كان بديناً، ذا كرش تقريباً، ولا يحترس الناس من الأشخاص البدينين مرتابين بهم، وبخاصة اذا كان وجههم مشرقاً مورد اللون وبعينين صغيرتين.

إضافة الى ذلك فقد كان يستمع، من دون أن يقاطع قط، كل ما كان يروى له، الحكايات الفاضحة عن القرية وعن البلدات المجاورة، وقلة الذمة عند بعض التجار الذين يبالغون والذين يذبحون بسطاء الناس المساكين.

ويعد هو:

ـ سترون. هذا كله سيتبدل ذات يوم.

وكان يحب أن يمكث عند عتبة منزله، وقدماه في خفين، ملتفاً في رداء فضفاض لغرفة النوم زاهي اللون. يكاد من يراه يقول إنه يتشمم الهواء بأنفاس قصيرة شرهة ونظراته تداعب المنظر الطبيعي المنشور أمامه مثلما يداعب بعض الهواة بأنظارهم تمثال تاناغرا صغيراً من اليونان أو تحفة خزف صينية.

كان الغدير يروق له، وبخاصة عندما يأتي قطيع الأغنام في الأصيل ليشرب، فيذكره ببعض اللوحات التي أشاعتها الطباعة بالألوان.

وأعلن بلهجة احتفالية:

ـ سأطلق على هذا المنزل اسم: طيبة. وعن طريق «طيبة»، ستصبح قرية بولليه شهيرة في القرون القادمة.

وللحق، فهو لم يكن يملك درهماً. وهو إنما التجأ الى الريف لأنه ليست له أية موارد، من الأسهل أن يعيش المرء هنا بما تمده به أرماند كومتا.

كانت أمه تتولى الأعمال المنزلية. وعشيقته تساعدها خلال إقاماتها الاسبوعية ولم يكن دانس يكره أن يشغّل بنفسه أصابعه في المطبخ هنا وهناك وأن يشتري بنفسه قطعة لحم ويتبلها.

ـ لا شك في أنه رجل طريف.

وهذه الكلمة بالنسبة لفلاح توضح كل شيء! كان رجلاً طريفاً وهاك الأمر! رجل طريف لا يؤذي أحداً وبرّ تماماً بأمه.

وهو إذا لم يكن يدفع نقداً دائماً لبائعيه، فلأن له حساباً في المصرف في باريس، ولم يكن لديه الوقت للذهاب إليه كي يسحب المبالغ اللازمة.

ـ سأدفع لك في الاسبوع القادم...

ولكي يبين جيداً أنه ليس في الأمر إلا تغير بسيط عن المألوف طرأ وأنه لا يضمر وغراً، كان يضاعف طلبيته كرجل لا أهمية لهذا الأمر عنده.

ـ فكروا بما أقول لكم، «طيبة» ذات يوم...

وقد شهد الفلاحون فعلاً ذلك اليوم يأتي...

- ٨ -

عرفت يوماً رجلاً في أحد أقبية حي سان - مارتان، محدوداً، ضئيل الشأن وكئيباً، يعمل طوال النهار على ضوء مصباح طاقته ٢٥ شمعة، يقوم باعداد الربطات والفواتير وكتب الارسال، ويلصق الطوابع ويكتب العناوين: وكان هو ممول نفسه، ومدير نفسه، ووكيل نفسه في الشحن، وأمين مستودعه، والفتى الذي يقوم بالجولات على السوق.

وكان مشروعه التجاري يتمثل في نشر كتيبات منعتقة من الآداب العامة وذات أغلفة تغوي.

وعرفت آخر هو على نفس القدر من الانعزال، وله نفس الشخصية كامدة اللون، يعدّ رزماً وربطات هو الآخر، ويذهب بعد الظهر الى مكتب البريد لاستلام حوالات تأتيه من كل أنحاء فرنسا، ومن سويسرا، ومن بلجيكا. وكان الرجل ينشر في الصحف اعلاناً، هو نفسه منذ عشرين عاماً، حرفياً

تقريباً: «خمسون فرنكاً في اليوم، منزلي، عمل سهل. تجهيز كامل بالمعدات، وايضاحات: أربعون فرنكاً».

وكان يكتفي بأن يرسل الى زبائنه علبة ألوان مائية من سوق شعبية، ويضع بطاقات بريد مطلوب تلوينها، مع نشرة ايضاحية تؤكد أنه بمعدل مائتي بطاقة ملونة في اليوم...

إنا على يقين من أن هذين كانا من نفس السلالة مع دانس، ولا يمكنني تعليل ذلك، ولكن هذا ما أحسه. إذ يوجد صنف من الأشخاص المنفردين، لا يغتسلون أبداً اغتسالاً شاملاً، ويطهون طعامهم لأنفسهم على موقد سيء، وينتهزون يسر التصديق عند بعض الناس كي يستغلوهم بتمتع ممسوس.

ودانس الذي صار الآن يلقب نفسه: أرمان مونتيغل ـ كلوديل، باشر نشر صحيفة جديدة، لم يصدر منها الا عدد واحد والتي كان هو محررها الأوحد. هذه الصحيفة كان اسمها «العرفان»، ولا تحتوي الا مقالات عن مؤسسها، كتبها هو نفسه بتواقيع مستعارة مختلفة.

هذه المقابلة الصحفية الخاطفة مثلاً:

أرمان مونتيغل ـ كلوديل: المكنون الصميم.

«حدث ذلك في آب الماضي في دوفيل، حيث أسعدني الحظ بأن التقي الشاعر الفيلسوف: أرمان مونتيغل ـ كلوديل، وأن أبادره وكل بطارياتي منشورة، بالهجوم فوراً عليه بأسئلتي. وكان قد مضى زمن طويل وأنا أضمر الرغبة في أن أعرف بالمجسات الصلدة التي لهذه المقابلة الصحفية الخاطفة أي دماغ يحيي عقل هذا الرجل الاسطوري.

«بشاشة، متقد القريحة، أجاب الحكيم على أسئلتي
«المحرجة، إذ حملت التسرية الى نفسه، على ما قال، هذه
«الرياضة البدنية الذهنية التي أخذ يخب فيها من ذكرى الى
«ذكرى ومن اعتراف الى اعتراف».

«قال ضاحكاً:

«- إنك أقسمت على تجريدي من ملابسي. لكن أترك لي
«على الأقل سروالي الداخلي. فكما ترى، توجد هنا نساء
«ينظرن إلينا ...».

وأتخيل صورة دانس وهو يكتب هذه الأوراق، لسانه بين شفتيه، مرتدياً مشمله لغرفة النوم الذي علته قذارة دسمة، يطرح الأسئلة ويجيب بنفسه عليها.

«- ما الشيء الذي يبدو لك أنه الأفضل؟

«- الحياة. فما دامت الحياة قائمة، كل شيء ممكن!

«- من الفيلسوف الذي تكرهه أكثر من أي آخر؟

«- شوبنهاور. متعهد توريد للمدافن».

وهو، دانس، بعد بضعة أشهر سيقدم على ارتكاب مجزرة!

«- والذكرى الأكثر ترويعاً لديك؟

«- تشريح جثة في أحد أشهر كانون الثاني الجليدية، في
«مقبرة مولبير».

بعد فترة وجيزة، إنه هو الذي سيضطر الأطباء لأن يشرحوا ثلاث جثث.

«- ما لذتك الفكرية الأكثر سمواً؟

«- أن أبدو غبياً في عيني أبله.

وفي محكمة الجنايات، سينهال على الأطباء بوابل من

الاهانات لرفضهم اعتباره مجنوناً أصيلاً!

«- ما هي لذتك الحسية المفضلة؟

«- أنت تبالغ في فضولك. إن لثماً مغناجاً من أنسام ليلية
«باردة لا يأنف جلدي من تلقيه في ليلة صيف صافية».

وأجساد صديقاتنا قبل سن بلوغهن في الليالي الباردة من فصول الشتاء خلال سنوات الحرب!

«- من كنت تود لو تكون؟

«- الله في كلية عرفانه. والبحر في كلية قوته. أو الأثير
«في كلية نقائه! ولكنني راض عن نفسي بأن أكون أنا نفسي.
«وأشكر القدر على كوني ما أنا».

بعض أصدقائنا في الـ«كاك»، ألم يكونوا يحسدون هم أيضاً الله الآب؟

«- ما الانتحار؟

«- معدن الرصاص، يضع قطعة أثاث في دماغ بائس لم
«يكن بداخله شيء»

وبالمناسبة، فهو لن يحاول قتل نفسه، بل يؤثر السجن المؤبد.

وكل المواضيع لها مرورها في المقابلة: الفنون، والآداب، والعلوم، والحكمة المطلقة، واللانهاية، ثم فجأة، لا يلبث البدين الماكر أن يعود للظهور وهو يطرح على نفسه هذا السؤال:

«- هل تحب أن تتناول طعامك خارج البيت؟

«- نعم. شريطة أن تقدم لي على أية حال الصحاف مرفقة
«بشعائر الصداقة، وفي جو من الذكاء والصراحة. فأنا أيضاً
«أحب الإطار...»

هوذا إشعار للهواة. وأصحاب المطاعم في المنطقة تمّ إخطارهم! إذ لم يقو دانس على مقاومة الرغبة في أن يوفر لنفسه بعض المنافع المادية.

لو وجدت مدرسة خاصة بكتاب الرواية فهذا العدد من «العرفان» يجب أن يصبح نوعاً من كتابهم المقدس، فهو يمكن أن يذكرنا في كل آن بفقر خيالنا.

فدانس، الرابض مثل جرذ كبير في «طيبته». دانس الذي تأتي فتاة هوى في كل اسبوع لتحمل إليه نقود «مواقعاتها». دانس الذي عليه قضاء سنتي سجن في بلجيكا بجرم الابتزاز، يكتب بكل وزن

«رجل مثالي!»

«ليعم السلام شعوب الأرض»

«ليس بالطريقة الرائعة والمؤثرة فقط التي ينكب بها على «القلق والألم، والتردد المحتار لدى ملتمسي مشورته وزواره، «بكل إخاء، يبرهن حكيم بولليه على إشعاعه الساحر وعظمة «روحه المثالية. فالمطلق، عنده، الحلم المثالي، إنما يكتب «بأربعة حروف: سلام. وفي سبيل الحصول على السلام في «نفسه وأن يعرف بذلك السكينة، فإنه يسعى جهده، في «حدود الوسائل المتوفرة في حوزته، الى تسجيل هذه الحروف «الأربعة في قلوب ملتمسي مشورته، مثلما ينشد أن يراها «تتألق في أربعة أركان المعمورة وفي أوروبا بشكل خاص.

«إن قصيدته الشهيرة في رثاء المغني الانتقادي برووان، «التي طافت كل أوروبا التي تغلي، تبرهن فوق أية قمم يحوم «فكر الشاعر وحلمه.

«ولئن حقق رومان ـ رولان مجداً ببقائه (فوق وطيس «المعركة)، فأي مجد يمكن ألا يكونه مجد أرمان مونتيغل ـ «كلوديل في مسعاه، هو، للحيلولة دون وقوع الكارثة!».

وحالاً، شأنه دائماً، يعود الماكر البدين للظهور، يضحك بإحدى عينيه وهو يلقي، ويترصد بالعين الأخرى كيس نقود زبائنه. فهو ينشر عناوين للرجوع إليها، دأبه كتاجر بارع.

«... التهاني لأرمان مونتيغل ـ كلوديل على قصيدته في ذكرى أريستيد بروان...».

ألبير لوبرون

رئيس الجمهورية

«... قرأت مرثيتك بتأثر شديد... وأنت تعرف بما «يكفي مقدار اعجابي المتفاني بكل الذين يخدمون قيم السلام «كي تتخيل وحدك الفرح العميق الذي أحسسته وأنا أقرأ مثل «هذه القطعة الأدبية أوحى بها فكر على هذا القدر من السمو «وكرم النفس... امتناني... وشكري... وتعاطفي «القلبي...»

ريمون باتنوتر

نائب السين والواز

وزير الاقتصاد الوطني

نائب أمين سر الدولة في رئاسة المجلس

«يقرأ المرء بتأثر شديد قصيدتك الرثاء تمجيداً لذكرى «أريستيد بروان...»

صاحب السعادة فون هوش

السفير السابق لألمانيا في باريس

«... تهانئي لأرمان مونتيغل ـ كلوديل على مشاعره «النبيلة

التي عبر عنها في قصيدة الرثاء في ذكرى أريستيد «برووان...»

الروائي موريس دو كويرا.

وتوجد على هذا المنوال صفحات عديدة بأحرف صغيرة.

وبعد ذلك، خريدة الشعر الصرف، الزهرة الزرقاء الصغيرة التي يدفعها دانس هذه المرة على أية حال باسم مستعار أنثوي، جاعلاً عنوانها على قدر من بساطة يسقط في اليد حيالها: «دار».

والمقصود داره طبعاً. ويرى القارئ صورتها، عند المغيب، مع قطيع الغنم الذي لابد ولا غنى عنه حول الغدير

«غروب في يوم من تموز، بالغ العذوبة، ذات مساء في «محافظة ليل دو فرانس، احتفالي وخفيف، مثل آلهة تفيض «بهاء، وهي بخفضها الجفنين تسدل بتمهل نقاباً فوق وجهها «الساطع...»

ثم، وأبعد قليلاً:

«التأمل المشيع للراحة، لهذه الصورة الأمينة والرائعة لـ: «(طيبة) بولليه، ألا تغمر العيون بفتنة صرف سحرية، وتفعم «القلب بانطباع عن سلام ملذ ومنشط، وتملأ النفس بسكينة «تذوب، والعقل بيقين لامتناه؟... لكأن الزمان والمكان «يضمحلان ازاء ما تستدعيه هذه اللوحة الريفية من ايحاءات، «والتي تقع على حد سواء على بعد مئات الكيلو مترات من «المدن ذات الأذرع الأخطبوطية وثلاثين كيلومتراً من باريس «المحمومة.

«مُقام للشاعر قضى به مسبقاً القدر، للحكيم، «للفيلسوف، للمفكر العميق ودقيق نفاذ الفكر، الذي «انسحب

بعيداً عن البشر، وهو مع ذلك بمنتهى القرب منهم «بإنسانية فنه، والذي يبدع قلمه بامتياز، ملهَماً بحلم لا «ينقطع ويرصد عبقر الأبدي، انطلاقات سامية الهروب، «وترجمة لوجوه اللاواقعي التي لا تدرك والإلهية».

والأمر، هو أن التجار قد تلقوا زيارة دانس، في دائرة نصف قطرها عشرات الكيلومترات، إنما دانس، هو أقل إلهاماً عبقرياً معهم وأكثر تودداً، والذي صرح لهم:

- تعرفون أن صحيفتي ستصدر. وسيكون لها دوي كوني. وستجتذب أعداداً جنونية من القادمين الى المنطقة وستنتفعون جميعكم من ذلك. طبيعي إذن أن تساعدوني بالنسبة للنفقات الأولية...

ثم، ومن دون أن يبدو عليه أنه يمس المسألة:

- وبديهي أنني سأضطر لأن أعتبر بمثابة أعداء شخصيين لي وكذلك كأعداء لأفكاري أولئك الذين لن يمدوا لي يد العون. وفي هذه الحال، قد يحدث لي، ربما، أن أروي بعض الأمور التي أعرفها...

لولا أن الفلاحين يعرفون الآن هم أيضاً «أشياء». فقد استعلموا عن أمر زائرة يوم الجمعة تلك وما عادوا يجهلون ما الذي تفعله في باريس، ولا أنها تشكل مصدر الدخل الوحيد للحكيم.

وقد بدأ بعضهم بعدم تحيته. وفي مطعم النزل أخذوا يتكلمون عنه باشمئزاز. وذات صباح، ظهرت على منزل دانس كتابة بحروف كبيرة بلا حدّ، تم إحداثها خلال الليل:

«بيت القواد».

قدمت شكوى لرئيس البلدية. فقام هذا في يوم نزل فيه الى المدينة بالكلام عن الأمر الى دوريات الأمن المتحركة، ومن سيرة لسيرة، انكشف أن الحكيم الشهير إياه محكوم في بلده بسنتي سجن.

وسرعان ما تحول المناخ. صار البائعون يرفضون البيع لطيبة، وعندما يظهر دانس في القرية، باتت جميع الوجوه تشيح عنه، والفتيان الصغار يبصقون على الأرض أو يقلدون أصوات الحيوانات.

ودار نقاش في المجلس البلدي الذي قرر التقدم بطلب رسمي لطرد الرجل غير المرغوب به. وتم التنويه بأنه توجد جماجم موتى في مكتبه وبأنه يمارس السحر. وتكلم هو كلاماً ينطق بالتهديد والانتقام الذي يمكنه إيقاعه من دون أن يغادر غرفة عمله، فقط بتلاوة وانشاد الأوراد وبالممارسات الغامضة السرية.

وتشكل حوله نوع من حزام واق، إنما من دون أن يبدو عليه أنه لاحظه، فقد واصل الكتابة على ضوء المصباح، حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، واستمر يستنشق الهواء الصافي عند عتبة بيته، ويذهب من حين لآخر الى باريس، ويرسل بريداً بضخامة بريد وزير ويتلقى بريداً أصغر بكثير.

من حيث المناخ، إنه نفسه مناخ البيت الفلاحي، المؤثث بشكل سيء ملحوظ، منعدم الترتيب، بستائره التي ذهب رونقها، وأشيائه المتنافرة، وكتبه القديمة، بينما قناع لوجه بيتهوفن يتبوأ مكان الصدارة.

فيما بعد، سيسافر رجال من أهل القرية الى لييج للإدلاء

بشهادتهم أمام محكمة الجنايات، وستظهر مالكة البيت، وهي امرأة ضئيلة القامة وهرمة في الثالثة والسبعين، نظيفة ورقيقة الجسم، ترتدي الأسود «على الطريقة القديمة».

وهتف دانس وقد استبد الهياج به:

- إنها هي التي سلمتني الى أعدائي. كانت تغار من أرماند. وكانت تتحرش بي! في الثالثة والستين أيها السادة المحلفون، وأترك لكم الحكم على الأمر!

ثم سيقدم رقيب الخيالة في الدرك التوضيح:

- في البدء أوحى لي دانس بالثقة. وكنت أراه كثيراً. كان يتكلم جيداً ويعرف أموراً كثيرة. وفيما بعد تلقيت شكاوى ضده وشكاوى منه. تبدلت طباعه...

ويسأل رئيس المحكمة:

- لماذا كان أهالي بولليه يكنون المقت له؟

- منذ أقام أمره على أنه يتعاطى الأسرار وأعمال السحر، خافه الناس!

وآل الأمر الى نشر أشكال وألوان بحيث ما عاد أحد يتبين شيئاً. وقال دانس لرقيب الدرك إن زوجة بائع الفحم هددته ببندقية. وأضاف دانس أن زوجها كان يريد قتل رئيس الجمهورية و...

- تحملت من كل الألوان! كان يعرف قصصاً طويلة بعض الشيء. وكان يدفع ديونه وايصالاته يوم الجمعة، بعد زيارة أرماند. ومع ذلك، كان يعنى جيداً بأمه...

ويضيف الناس:

-- بعد أن ينقضي هياج غضبه، كان أفضل الناس...

كان يمكن لدانس أن يقتل قبلها بعدة أشهر فتشبه جريمته بقدر كاف ما أقدم دوبلوويه على ارتكابه. ولكن الوقت توفر له للعيش في بولليه ولكتابة العدد الأول من «العرفان».

وأعطي الوقت كذلك ليثير ضده بلدة بكاملها من محافظة ايل - دو - فرانس. وظهرت كتابات تلطخ جدران بيته. وانفجرت مشادات وجرى تبادل كلمات قبيحة.

وعندئذ أسفر عن أنه لا يقل عن الفلاحين ولعاً بالتشاكي أمام السلطات. والأشطر هو من يسبق بتقديم شكواه:

- قال اللحام بحضور شهود...

- منذ أيام، عند ركن الشارع، هددني دانس بـ...

وتتهمر الرسائل من جانب ومن آخر، ويسري السم أكثر فأكثر في العلاقات، ويعتبر دانس كل السكان، بمجملهم اطلاقاً، كأعداء شخصيين له.

لكن ما باله ولماذا ذهابه للتلطي في قرية، بدلاً من أن يكتفي مثل «زملائه» بقبو في حي سان مارتان أو بشقة صغيرة من غرفتين في حي الجمهورية؟

الأخوان، عندما كان يبلغ النحول بهما مداه، وبعد أن يكونا ناما ليلتين أو ثلاث على الأرض، كانا يلقيان أمهما من سريرها فيطرحاها أرضاً، ويضربانها ليستخلصا منها بعض المال، أو أيضاً يسرقان آخر ما عندها من ثياب.

العلامة بالنسبة لدوبلوويه، كانت خيانة عشيقته التي لم يفلح في العثور على بديلة لها، لدرجة أنه هو أيضاً جرّ نفسه على طول الأرصفة وهو يتطلع الى المقاهي الممنوعة عليه لافتقاره الى المال.

وستكون العلامة هي نفسها تقريباً بالنسبة لهياسنت دانس، الذي لم يجتذب العدد الصادر من صحيفته «العرفان» تقاطر الحجاج المأمولين المتوقعين.

لقد عز المال، وأخذ الناس يصبحون أكثر فأكثر تهديداً. خافت الأم العجوز، ولعلها جازفت بابداء بعض النصائح.

ولم ينفع في شيء نشر شهادات كل تلك الشخصيات، ولا خمس صور شخصية له في عدد واحد من الصحيفة.

وتمدّنا بعض التفاصيل الغثة بالمفتاح بالنسبة لبعض الأسرار. فلماذا مثلاً أصبح تاجر الفحم، في تصور دانس، هو رأس المؤامرة الموتورالمتكالب على هلاكه؟ ذلك لأن الشتاء استطال بلا نهاية، ولأن التدفئة في هذا البيت المنعزل لها أهميتها.

فنحن في أيار وما يزال الطقس بارداً. وطوال الاسبوع، تعاقب الدائنون كالعادة، وكالعادة أيضاً أجابهم دانس:

- تعالوا يوم الجمعة بعد الظهر وسيدفع لكم.

والقضية أن أرماند كومتا اذا ما جاءت فعلاً في يوم الجمعة ١٥ أيار وأحضرت معها قليلاً من المال، إلا أنها لم تكن لها سيماؤها المعهودة وأعلنت أنها لن تستطيع البقاء حتى يوم الأحد.

لماذا؟ ولم تعلل موقفها بوضوح لا لبس فيه. وارتبكت فرية عملها بحاجة اليها. وأختها سألتها أن تمر لعندها لقضاء ليلة...

وزمجر دانس وقد انتابه شك:

- عندك عشيق!

- طبعاً لا! ولماذا تقول هذا؟

والواقع أنه صحيح! فعندها عشيق منذ عدة أسابيع مضت. عشيقة دوبلوويه التقت تيبالدا في مربع الرقص حيث كانت تعمل. وقد التقت أرماند الحب في بيت الهوى في شارع القاهرة في شخص واحد من رواده، هادئ ولطيف، والذي وعدها بأن يخرجها من هناك.

يوم السبت ٦، في الصباح، يذهب دانس وأرماند الى باريس حيث يفترقان. وفي المساء، يتصل دانس، الذي اجتر شكوكه طوال اليوم، بأخت أرماند فيعرف أنها ليست هناك، ويتصل ببيت شارع القاهرة، حيث لم يكن لأرماند وجود كذلك.

أتخيل أنه في تلك اللحظة، لا بد أنه أحس ساقيه تخذلانه وفهم أنها النهاية.

ونام ليلته في غرفة مفروشة، أو أنه لم ينم. وفي الصباح، ومن دون أن يعثر على أرماند، عاد الى بولليه وبقي مغلقاً على نفسه طوال يومين وهو ينتظر الأخبار.

وأخيراً، اتصال هاتفي من باريس.

ـ ألو... أنا، نعم... أطلب عفوك، ولكنها ليست غلطتي... لا، لن أذهب الى بولليه... الأفضل الا أضع قدمي فيها من جديد... انتهى، هل تفهمني؟.. أحب رجلاً، وهو يحبني... سوف نعيش معاً... يجب أن تنساني...

إنه يهدد، يبكي. يريد أن يراها مجدداً مرة أخيرة.. مجرد مرة!

ـ لا! أحس أنه من الأفضل...

كان ذلك موسم زخات المطر المفاجئة القصيرة مع برد، والشمس تشرق بين وابلين من المطر.

ويضع دانس سماعة الهاتف من يده ويخف من فوره الى باريس، ويأخذ مكانه في مشرب مواجه لبيت شارع القاهرة ويقضي فيه ساعات وهو ينتظر.

وحوالي المساء، تخرج أرماند، وتسير عدة خطوات فتلمح عشيقها فتهرب من دون أن يتمكن من اللحاق بها. عندئذ يذهب، هو، لعند أختها ويقرع بابها فتنظر اليه بارتياع وتحاول تهدئته.

وبالفعل، فقد أفضت أرماند لها:

- إنه قادر على قتلي..

في بيت شارع القاهرة، تعليمات الباب قاطعة:

- لا تدعوه يدخل أيا كانت حجته.

ومرة جديدة يرجع الى بولليه، حيث يتلقى بتاريخ ٩ رسالة من عشيقته تحاول فيها أن تبدي من الحنو بقدر ما تستطيع. فهي تنشد منه أن يصفح عنها... إنها التقت الحب. وهي سعيدة، وتتمنى له السعادة... والأفضل أن يفترقا على ذلك النحو... وهي تتخلى له عن كل ما تملك في بولليه.

مسكينة أرماند التي ظنت أنها أفلتت من قدرها! فأختها لم يفتها أن تؤكد لها القول:

- إن كنت متمسكة بحياتك فلا تريه بعد أبداً. لأنه سيحاول أن يستثير مشاعر الحنان عندك وهو قمين باللجوء الى كل الخدع...

وقد وعدت... وانصرفت بكليتها الى حبها الجديد، وقريباً ستتمكن من مغادرة بيت شارع القاهرة.

وكتب دانس:

« ... مرة أخيرة، وحيدة. سيرى أحدنا الآخر على سطيحة مقهى... يجب أن أكلمك وأن نناقش بعض التفاصيل...».

ألا يدعو هذا للاعتقاد بأن ارماند أصابها دوار، ومضت من نفسها لملاقاة موتها طوعاً؟ فهي قبلت، من دون أن تقول شيئاً لأختها، ولا إلى رفيقاتها في شارع القاهرة، اللواتي اطلعن جميعاً على هذه القصة ويتابعنها وكأن الأمر رواية متسلسلة.

ويلتقي الثنائي في المساء، على سطيحة مقهى صغير. دانس هادئ. وتخبره هي عن شعورها بالرضا لأن تراه على ذلك القدر من التعقل، ويبتسم هو ابتسامة من سقطت أوهامه.

وقال بصوت تمالك انفعاله:

- لا أريد البقاء بعد في بولليه. فإن أشياء أكثر من اللازم هناك ستجعلني أفكر بلا انقطاع بك. وأخاف أن أتألم. على أية حال فالمفروشات فيه هي ملكك. وكذلك معظم الحوائج...

- ما دمت قلت لك..

- أصغي! لقد اتخذت قراراً كبيراً. في بلجيكا، على أن أقضي سنتين في السجن. سأذهب الى هناك. وهكذا، طوال سنتين سأنعم بالهدوء، وحيداً مع أفكاري، وعندما ينتهي ذلك، لن يعود هنالك شيء ضدي.

زبائن آخرون، على مقربة منهما، يتكلمون عن أشياء وأخرى!

- مسألة واحدة هي التي تقلقني، أمي المسكينة. ولذلك فكرت بأنه ربما يكون بإمكانك الاحتفاظ ببولليه حيث كل حوائجك... وستستمر أمي في السكن... ولن تكلفك أي شيء تقريباً... وأنا، خلال ذلك أكون في السجن.

وقد قال ذلك كله بلهجة من اذعان لدرجة أنها تحركت فيها مشاعر الشفقة.

- أنا موافقة على الاحتفاظ ببولليه، وأمك...

وقبل ذلك بساعتين كانت أختها قد كررت على مسامعها:

- وبخاصة لا تدعيه يستدرجك الى هناك بأي شكل!

هي نفسها صرحت:

- اذا ما أفلح في أن ينفرد بي فسيقتلني!

ومع ذلك، في غسق باريس، وأمام أقداح القهوة المسقية، ها هي تلين، وهو يتكلم، يتكلم، وشيء في صوته يذوب، كرجل ما عاد يأمل الا بالسلام في حجرة ضيقة، حتى لو كانت زنزانة.

- هكذا، على الأقل، أكون مطمئناً بالنسبة لما يتعلق بك وبأمي... كنتما الوحيدتين اللتين أحب في الدنيا... لكن، ما دمت تؤكدين لي أنك ستكونين سعيدة...

ولا بد أنه وجد كلمات أخرى أيضاً، طالما أنه في قطار الساعة العاشرة، ومن دون اخطار أحد، لا عشيقها الجديد، ولا أختها، ولا ربة عملها، اتجهت ارماند ناحية المحطة برفقة دانس وأخذت مكانها معه في عربة درجة ثالثة.

- سنرتب كل شيء بدقة، بحيث لا يشغلني أي همّ بعد وأنا هناك في السجن...

بل ولعلها بكت وهي تراه على ذلك القدر من الاذعان. أليس ذا روح عظيمة حقاً كي يقترح بأن يتمتع خلفه من بعده بمفاتن «طيبة»؟

ونزلا في محطة صغيرة وسلكا الطرقات المعتمة، ولمحا نافذة مضاءة في المنزل.

ومع ذلك، اذا وجب أن نصدق ما سيقوله دانس لاحقاً، فأرماند كانت عصبية، وطوال الطريق لم تكف عن الالتفات الى وراء معتقدة أن أحداً يتعقبها...

ألم يكن ذلك بالأحرى اعتقادها بأن عشيقها الجديد يتبعها بقصد حمايتها؟

أغلق المشرب أبوابه. أما المزارع فقد غرقت في النوم منذ زمان.

- أترين! إن أمي تنتظرنا...

واجتاز العتبة، بينما سبرت ارماند مرة أخيرة الليل حولهما.

- ٩ -

عما سيقع من أحداث في تلك الليلة وفي الأيام التي تلتها، لا نملك الا الرواية التي أدلى دانس بها أمام التحقيق، بأريحية في توخي أصغر الدقائق، ملحاً على بعض التفاصيل ومستوثقاً من أن كاتب المحكمة يسجل أقواله كلمة كلمة، من دون أن يسقط شيئاً منها... وهذه الرواية هي التي ستستعاد كاملة في بيان الاتهام.

«ما كاد القطار يغادر باريس حتى بدأت ارماند تظهر «عصبية غريبة جداً، بينما أخذت أنا أبذل الجهد لطمأنتها. «إنما بين محطة بوللي وطيبة، وأثناء سيرنا في الليل، كان «أن اتخذت عصبيتها أبعاداً مرضية. بدت وكأنها مأهولة بـ ««هلوسة» (وألح على الكلمة التي كان متمسكاً جداً بها). «كانت تلتفت وراءها بلا انقطاع، وتنتفض لأقل صوت، «وتزعم أنها تحس بأن أحداً يتعقبها؛ من جهتي كنت أبذل ما «بوسعي لتهدئتها.

«ولدى وصولها الى البيت كانت أمي تنتظرنا، أرادت «ارماند الصعود مباشرة الى غرفتها. كانت عينا الهرة في تلك «الليلة شاذتي النظرة وتصدر منها صرخات ناشزة، الأمر الذي «أكمل اخراج ارماند عن طورها.

«وأكدت وهي تذرع الغرفة من دون أن تجرؤ على الاقتراب «من النوافذ

«- أقسم لك على أن أشخاصاً يحومون حول المنزل.

«بقصد الانتهاء من ذلك، خرجت من البيت وقمت بدورة «حوله. رافقتني، وكانت يدها ترتجف على ساعدي. ولم «استطع أن أعيد الطمأنينة اليها بقدر ما كنت أرغب، ذلك أننا «رأينا معاً أشباحاً كانت تلوذ بالفرار، وعندما عدنا فدخلنا «البيت مجدداً كانت أرماند في حال من الفزع أشد من قبل.

«وهي إذ ذاك إنما ذكرتني بأنه في وقت سابق على «استقرارنا في بولليه انتحر شخص بالضبط في غرفة النوم وفي «السرير اللذين تشغلهما الآن.

«وأبت أن تنام في الغرفة، وقررنا قضاء الليل في المطبخ «من دون نوم.

وانقضت نصف ساعة على ذلك النحو. كنا جالسين كل «على كرسي. وكان الطقس بارداً، فأخذت أسنان ارماند «تصطك.

«وبعد نصف ساعة من منتصف الليل، لم يعد بمقدورها أن «تتحمل أكثر وقررت أن تنام. فتبعتها، وأخذت مكاني «بقربها على سريرنا.

«ومـرت بضع دقـائق، في الظلمـة، وفـجـأة، القت ارمـاند
«بنفسها علي. بدت شبه مجنونة، تصرخ بأن هنالك أناساً «في
الخـارج من نـاحـيـة الواجـهـة، وأنهـا مـتـأكـدة من أنهـا سـمـعت
«صوتاً.

«وارضـاء لهـا، نهـضت، وذهبت أفـتح النـافـذة، ثم أعـدت
«اغلاقها من دون أن أكون رأيت شيئاً.

«وصرخت هذه المرة.

«- إنه من ناحية الباحة.

«وفتحت النافذة الأخرى، من دون نتيجة أفضل.

«كـانت حـال ارمـاند فـعلاً غـيـر طبـيـعـيـة. وأخذت أصـبح
«عصبياً بمثل ما هي عليه. وفي لحظة ما، دفنت هي وجهها
في «الوسادة واندفعت تبكي في اجهاش يختلج.

«وعندئذ فقط، وبعد أن اعيتني الحيلة حول ما يمكن أن
«أفعل، كـان أن لمـحت المطرقـة بجـانب السـرير. فـتـاولـتـهـا
«وضربت بها ارماند على رأسها.

«ثم رأيت سكيناً فأغمدتها في عنقها.

«وبعد ذلك، شعرت بأنني لست على ما يرام. كنت «خائفاً
من البـقـاء وحـيـداً. فـخـرجت من الغـرفـة، وايقظت امـي «التي
كانت نائمة في الطبقة الارضية. وطلبت أن تشعل ناراً «لاعداد
مغلي أعشاب من شأنه ان يروح عني.

«وسألت أمي وهي تراقبني بامعان:

«- ماالذي يجري؟

«ولمـا كـانت اجـابتي مـتـهـربة، دفـعت باب غـرفـة النوم
«واقتربت من ارماند وانحنت عليها.

«كانت المطرقة في مكانها ما تزال. ولم يكن بمقدوري أن «أحيد بعيني عنها. وأمسكت يدي بالمطرقة. وضربت، «بالضبط كما كنت ضربت ارماند، ثم اخذت السكين «واغمدتها في عنق امي.

«لم أكن في حال جيدة على الاطلاق. وأول ما فعلته هو «أنني نزلت الى المطبخ وتناولت كحول النعناع، ثم، سقطت «على ركبتي وصليت طويلاً أمام صليب للمسيح.

«لم يكن في طاقتي أن أرضخ لترك المرأتين اللتين أحببت «في الحال التي كانتا عليها. فعدت للصعود الى فوق، ووحدي «توليت اعداد هندامهما المأتمي، ووسدت جسديهما تحت «الأغطية.

«وضعت بعد ذلك صليباً فوق قماش الملاءة، وبعض عروق «خضرة في ايديهما المتيبسة المتجلدة. وأخيراً وضعت فوق «الجسدين الموسدين قناعاً لوجه بيتهوفن وآخر لبودلير.

«لقد زعمت دائماً بأن أمي تشبه قناعاً لوجه بودلير. «أحسست دائماً كذلك، حتى في صغري.

«وكذلك فعندما كنت صغيراً أيضاً، في الرابعة أو الرابعة «والنصف من عمري، حدث ما رأيت من قتل أنثى خنزير، «أول الأمر بضربة من مطرقة على الجمجمة، ثم بغرس سكين «في العنق، وقد فعلت نفس الشيء مع ارماند ومع امي.

«وغادرت البيت الذي اعدت اغلاق بابه. ففي الليلة «الفائتة، وكنت اتخذت قراري بالرحيل لأقضي سنتي السجن «في بروسيل، كنت قبلها قد اودعت في مستودع امانات «محطة قطار الشمال حقيبة تحتوي بعض الحوائج.

«وفي الصباح، استرددت الحقيبة وأخذت القطار الى بلجيكا...».

عند هذا الحد، فالمصادفة ستغدو هي نفسها مأهولة بالهلوسة. لدرجة الاعتقاد بأنه لا دوبلوويه ولا دانس كان يمكن للقدر أن يقضي لهما بمصير القتلة العاديين.

فدوبلوويه، الذي تبحث كل قوى الشرطة عنه، يقبع بكل بال هادئ في السجن، في سانت ـ ايتين، حيث تم العثور عليه بما يداني وقوع معجزة.

أما دانس هو، فما إن نزل من القطار في بروسيل، حتى مضى لمقابلة أحد المحامين. ولم يكن لديه الا سؤال وحيد يطرحه، سؤال يجعل عرق المحتضرين يسحّ حبات على جبينه.

واعترف للمحامي بضمانة السر المسلكي سائلاً اياه:

ـ قتلت من فوري أمي وعشيقتي. فهل يحق للقضاء الفرنسي أن يطالب بتسليمي له؟

فما الذي حدث عندئذ؟ هل كان المحامي شارداً؟ أهو دانس الذي أساء فهم ايضاحات المحامي أو أنه فاته أن يعلن بأنه بلجيكي الجنسية؟

ففي بلجيكا، لا وجود لعقوبة الاعدام، ودانس ليس له الا هم واحد هو: النجاة بجلده وانقاذ رأسه.

ـ اخبرني، أيمكن المطالبة بتسليمي؟

«والأمر هو أن هذا غير ممكن. فدانس، اذا تم توقيفه في «بلجيكا، وهو من الرعايا البلجيكيين، ستجري محاكمته في «بلجيكا عن الجرائم التي ارتكبها في فرنسا».

ولم يفهم دانس المسألة على ذلك النحو، المحامي أخطأ

التعبير ونصحه بكل بساطة بأن يسلم نفسه. وها هو في الأزقة والشوارع، يراوده شبح المشنقة.

ومع ذلك فهو قد سلم نفسه الى الشرطة أول الأمر.

ـ أنا هيا سانت دانس، محكوم غيابي عام ١٩٢٦ بالسجن سنتين. هاتان السنتان أنا قادم بقصد قض...

في بوللي، لم تكن جثتا المرأتين قد اكتشفتا بعد. وقلبّ الشرطي النظر بزبونه الطريف، وقام بعدة اتصالات هاتفية، وأعلن أخيراً:

ـ أنا آسف. لا استطيع تلبية طلبك. فإن جنحة الابتزاز المرفوعة ضدك عام ١٩٢٦ قد سقطت بالتقادم.

يرفضون توقيفه وزجه في السجن. وها هو في الشوارع وقد أسقط في يده ولا يعرف ماذا يفعل، وكابوس المقصلة ما يزال يلازمه.

وفي صباح اليوم التالي أخذ القطار الى لييج، وأخذ يهيم في مسقط رأسه، ورأى مجدداً كل الأمكنة الأليفة: متجره القديم، واعدادية سان ـ سيرفيه، والبيت الذي قضى طفولته فيه.

وما من خبر في الصحف عن مأساة بوللي، وهاك ما رواه عن الأمر فيما بعد.

«بعد ذلك الحج الذي قمت به الى الأمكنة التي كانت «عزيزة على نفسي، شعرت بالحاجة لأن اعترف بذنوبي في «الكنيسة. فذهبت الى دار اعتكاف الآباء اليسوعيين، في «شارع كزوفيمون، حيث كنت أعرف كيف أجد الأب الجليل «هوت أستاذي القديم. أخذت سيارة أجرة، وطلبت الى «السائق أن ينتظرني عند الباب.

«أدخلوني أول الأمر الى غرفة مقابلة الزائرين وجاء الأب «المحترم هوت وسمع روايتي عن المأساة، ثم قر رأيه على «أنني لست في أوضاع ملائمة بالقدر الكافي للإدلاء باعتراف «كنسي.

«وباعتبار أنني لحت له نافذ القوى، فقد قادني الى «غرفة الطعام. ومضى فأحضر لي زجاجة جعة. وسكب لي فيها «كأساً شربته. وبعد مضي بضع لحظات، انحنى كي يسكب «لي كأساً آخر.

«وعندئذ كان إخراجي لمسدسي من جيبي وأطلقت النار، «لأني تذكرت فجأة كل ما كان الأب هوت قد أنزله بي عندما «كنت تلميذه.

«تلقى طلقة أولى في الرأس، وسقط على ركبتيه. واطلقت «ثانية وثالثة، وانهار، ضاماً يديه على بطنه. وعندها أطلقت «بقية الرصاصات كيفما اتفق، انطلقت قبل أن يأتي أحد، «ووجدت سيارتي عند الباب، فوجهت الأمر للسائق:

«- قدني الى قصر العدل!

«وهناك طلبت مقابلة أحد القضاة أو أحداً من النيابة «العامة، ورويت كل الحقيقة».

طوال عشر سنوات، كان الأب الجليل هوت هو الذي يتلقى اعترافاتي أنا أيضاً. وعندما قضى نحبه كان في الخامسة والسبعين تقريباً.

وسيعلن دانس، الذي ألح، حتى قبل أن يطلب لنفسه أحد المحامين، على اخضاعه لفحص لقواه العقلية، سيعلن:

- تذكرت فجأة كل ما كان أنزله بي.

وطوال أشهر، سيظهر دانس أكثر المتهمين عجباً وخرافية، فهو يعيّن محامياً عنه، ثم وبعد أيام يطرده، خارج زنزانته، ويهدد آخر سخرته المحكمة للدفاع عنه، بخنقه، مناقشاً حرفاً حرفاً المختصين بسلامة القوى العقلية المكلفين بفحصه.

وفي محبسه، وهو أكثر من أي وقت آخر أشبه ما يكون بحيوان نفور، وقبل المحاكمة بثمانية أيام، اضطرت المحكمة لتوكيل محام جديد له فرفض مقابلته.

إذ ذاك، وليلة نظر محكمة الجنايات في القضية، خطرت لهذا المحامي فكرة، فأخذ القطار الى باريس، ونزل فيها قاصداً مباشرة موريس غارسون وأعلن له:

ـ استناداً لمعرفتي به، فإن دانس سيرفض غداً أن يدع أحداً يدافع عنه. في حين أنه لا مناص من أن يدافع أحد عنه. وقد فكرت بأمر... فباعتبار أنه تراوده خيالات العظمة، فسيرضي غروره أن يزعج نفسه لأجله أحد سادة التقاضي في باريس، وسيتركه يدافع عنه...

وهو ما حصل! مع تفصيل غريب مع ذلك. فقد استمرت المحاكمة من الاثنين حتى يوم السبت. بينما كان على موريس غارسون أن يرافع، قطعاً، في يومي الخميس والجمعة في باريس.

وسأل:

ـ وما العمل اذا جاء دوري في المرافعة بينما لا أكون هنا.

ـ لا تخش شيئاً. لن يأتي دورك قبل يوم السبت.

ـ لكن مع ذلك... لم يبق الا عدد قليل جداً من الشهود لسماع أقوالهم. و...

- أكــرر لك، ليس عليك أن تخــشى شــيــئــاً. واذا حل دور الدفاع في المرافعة فسأواصل الكلام حتى وقت وصولك أنت.

وقد فعل! بشجاعة، كدت أكتب: ببطولة، فقد ظل يتكلم يوم الجمعة بطوله، بقصد أن يماطل في المحاكمة فتتأجل حتى يوم السبت متيحاً بذلك لموريس غارسون أن يصل.

خلال ذلك الوقت كان دانس يخط بكلمات متأنية، مزيناً الحروف بالزخارف المتعرجة، القصيدة التالية:

«المرغوبة»

-I-

توك! توك! توك! . من يقرع الباب؟

. هيا، أيها الشاعر، افتح الباب،

وانظر!

إنها السعادة بقرب دارك!

تنشد الدخول لعندك، تحت سقفك!

. آه، آه. دعي الباب أيتها السعادة.

فجميع أفراحي قد ماتت!

-II-

توك! توك! توك! . من يقرع الباب؟

. هيا أيها الشاعر افتح الباب،

وتعال لترى:

في المساء هنا، شاهدوا مرور
وجه الأمل الوضيء!
. أواه! ما لكم لا تدعون الباب:
رجاء القلب عندي قد مات.

-III-

توك! توك! توك! . من يقرع الباب؟
من العابر هناك؟.. من يحدث كل هذه الضجة؟
ومنذا الذي تجرأ على فتح بابي؟
أسرع، أسرع، ودافع عن بابك.
تشجع، أيها الشاعر، وكن قوياً:
شوهد الموت وهو يدخل لعندك!...

. أخيراً... أوصد الباب.
خشية أن يعود فيخرج الموت

(ج. هيا سانت دانس)
ا. مونتيغل

لم يكن مضى وقت بعد على الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وإذا به يمكنه أن يولي نفسه أبهة أن ينظم شعراً عن الموت: «فهو من حينها بات على يقين من أنه لن يموت»!

هل يتذكر، وهو في سجنه في لوفان، الفتيات الصغيرات سيئات الصحة، اللواتي كن، تحت أعمدة النور المحاطة بهالة زرقاء، يهمسن لنا بقصص غريبة تتقطع خلالها الضحكات الهستيرية.

أيتذكر أنه قد كتب في «عرفان» حيث أجرى المقابلة مع نفسه:

«ـ ما لذتك الفكرية الأكثر سمواً؟

«أن أبدو معتوهاً في عيني أبله.

تلك اللذة على الأقل فاتته. فهو طوال ستة أشهر مر التحقيق عمد الى التكشير وأصدر التهديدات بلا جدوى، وأطلق العنان للأخيلة غير المعقولة. وزعق في محكمة الجنايات:

ـ كان أبي مصاباً بالسفلس.

وتم اثبات أن ذلك لم يكن صحيحاً.

ـ كانت أمي تتعاطى المورفين.

ذلك أيضاً كان غير صحيح.

ـ راودتني دائماً حكاية أنثى الخنزير التي رأيت قتلها، بمطرقة ثم بسكين، كما قتلت أرماند وأمي...

لكن ما الأمر بالنسبة للأب الجليل هوت؟

ـ أنا مغرم بالجثث.

سوف يتولى تعداد رذائله بالتفصيل، بطواعية، مع نظرة من ركن عينه، للتأكد من التأثير الحاصل. فهو قد أفلح للآن باستبدال المشنقة بالسجن. لعله قد بقي استبدال السجن بمصح عصبي...

ـ مصاب بجنون العظمة!

هذا ما أقام موريس غارسون عليه مرافعته.

وتضطرب حركة دانس، ويقلق، وتراوده الشكوك، واجداً أن ذلك غير كاف. ومن غير شك، لو أمكن له أن يفعل، ولو أمكن لما يفعل أن يعطي نتائج، فإنه كان مستعداً لأن يلتهم برازاً، هنا، أمام المحلفين، الذين قد يجدون أنفسهم مرغمين فعلاً على اعتباره مجنوناً حقيقياً.

وقرر الخبراء:

ـ مصاب بجنون العظمة، ربما؟ ولكنه مسؤول عن أعماله.

يظل نصف نجاح على وجه الاجمال، ما دام رأسه ثابتاً فوق كتفيه متصلاً بهما بعنق ذي عقد لونها زهر.

كانت لي جدة، عندما يروي أحد حكاية لها على أمل أن يدهشها، كانت تقتصر على أن تزفر قائلة:

ـ كل هذا الذي يفعله الناس مع ذلك!

دانس انصرف في لوفان الى كتابة أشعار متزايدة الغموض حتى انغلاق المعنى تماماً. ووافت المنية الأخوين من دون أن يقوما كلياً بقتل أمهما التي أخذت حيطتها من الأمر فماتت قبلهما. وشنق الصغير ك... نفسه على بوابة كنيسة القديس فوليان وفي قدمه الواحدة فقط فردة حذاء، والفقير الذي كان علمّه أن يحشو أنفه بالكوكايين قضى نحبه مقتصراً هو على تعاطي النبيذ الأحمر لافتقاره الى المال، في باريس.

تييالدا، الموظف في البريد، والراقص في المنتديات الاجتماعية، معذب النساء اللواتي تجاوزن سن الشباب، ما عاد

الا مجرد اسم في حوليات الجريمة، في حين أن مدريد يجري قصفها، ودوبلوويه في سجن الأشغال الشاقة.

ومن يدري إن لم يكن أحد نجاري المفروشات ممن يمارسون مهنتهم في البيت هو الذي يشغل مجدداً مقرّ «الكاك»؟

أخيراً، رافقت جدتي الى مثواها الأخير في المقبرة، وقد جف عودها لدرجة أن تابوتاً للأطفال كان من شأنه أن يكفيها.

«ـ كل هذا الذي يفعله الناس، مع ذلك!»

تقولها عن الطائرات والغواصات، والشعر القصير، والأفران الكهربائية، وما ادراني أيضاً...

ألعله كان شكلاً للتعبير عن الاعجاب؟ وربما أيضاً كانت تقصد بقولها:

ـ وما فائدة ذلك؟

أو تقول أيضاً:

ـ بالنسبة لما يغيره هذا من الأمور!...

ما الذي يبقى من تلك الذكريات ومنا؟... كنا في مرحلة مضطربة ـ أليست جميع المراحل كذلك؟ ـ مجموعة من فتيان صغار عمدوا الى تحريك أفكار خطيرة خطورة القنابل أو الوقوف عند حافة هاوية من دون وعي لذلك الخطر. وقد لجأنا الى الانارة المظللة بالعتمات والى الرشاش البراق على السطح والى جماجم الموتى لنفزع أنفسنا بها وتعاطينا الشراب لنصير أكثر جنوناً. وخاطبنا الله الآب وابليس بلا كلفة، ونحن نكتم القشعريرة، وضاجعنا شارلوت لتقنع أنفسنا بأن الحب شيء منفر.

هذا لم يمنع الحياة من أن تأخذ مجراها، مثل نهر الموز، بفيض مياهه وشحها بالتناوب، ولم يعقنا نحن عن أن نتزوج، والأطفال عن أن يولدوا، والأمراض عن أن تظهر، لم يمنع الآمال وخور العزيمة، والعسر في نهايات الأشهر، وولائم العشاء الصغيرة التي تنعش القلب.

الصغيرك...، والفقير... ودبلوويه... وتيبالدا.... والشقيقان... دانس وأمه، وبالإضافة إليهم جميعاً أرماند تلك من شارع القاهرة.

يمكن إجراء احصاءات لمعرفة ما اذا كان ما نلناه وأصابنا هو نصيب أوقع من الذي أصاب غيرنا أم أننا قد نجونا بجلودنا بالسلامة. إنما في حال الاحصاء، سيتعين عندئذ أخذ كل شيء في الاعتبار، وأن يدرج على الأعمدة قيد محاسبي، لا بأعمال القتل والانتحارات وحدها، بالقتلة والضحايا، بل تدرج القيود على تلك الأعمدة بدفاتر التوفير وآلام المعدة، بالالتهابات الرئوية والاجهاضات، بالآمال الكبرى والخيبات الصغيرة.

مجهود كبير!

مجهود مستحيل في ساعتنا الراهنة، طالما أننا من أصل الفريق الصغير الذي كناه في الماضي، بقي منا نفر محدود، وثمة من سيسقط أيضاً.

إنني لأفكر بآخر من سيبقى حياً منا...

لكن لا! فهو سينظر الى شبيبة أيامه ويغمغم:

- كل ما يفعلونه مع ذلك!

فهذا كله في نهاية الأمر مجرد حوادث عادية جداً والى حدٍّ فظيع.



عرف سيمنون فيما مضى من حياته هياسانت دانس «ولي بولليه»، ودوبلوويه، وهو صحفي قدر له أن يصبح ذات يوم قاتلاً، واشخاصاً آخرين أيضاً كتب لهم مصير فاجع. إنها استعادة لصورة مدينة لييج قوية الخُطوط، كما كانت أثناء وبعد الحرب: (الحرب العالمية الأولى)، وهي كذلك القصة طريفة الألوان عن بدايات الروائي عندما كان يتعلم المهنة في باب الأخبار المحلية الصغيرة في احدى صحف مسقط رأسه.

إنها في آخر الأمر «بعث» لدانس، عالم الروحانيات والأسرار، ذو الأخلاق الأكثر من مريبة، مهووس ومغرور، ومبتز أريب وقاتل.



دار المدى للثقافة والنشر